

نجيب محفوظ



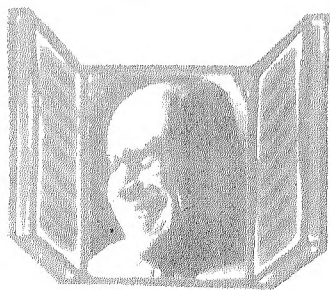
وطني مصر
حوارات مع محمد سلاموي



دار الشروق

حلمى
التون

نجيب محفوظ



وطني مصر



الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة ٨ شارع سيديو المصطفى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص ب ٣٣ البانوراما - تلفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الغلاف والإخراج للفنان حلمي التوني

نجيب محفوظ



وطني مصر
حوارات مع محمد سلاموى

بعدسة سارة سلاموى

دار الشروق



تَقَاتِيْمٌ

تعتمد مادة هذا الكتاب على حوارات ممتدة بين كاتب نوبل العربى الشهير نجيب محفوظ ، وصديقه الأديب المصرى الشاب محمد سلماوى ، وهي حوارات استغرقت أكثر من ٤٠ ساعة مسجلة يتحدث فيها محفوظ عن مصر التي يعرفها أكثر من أى شخص آخر : يعرف تاريخها وحضارتها ويعرف ناسها الذين يسكنون الجوارى والأزقة في المدينة القديمة والذين تمتليء بهم رواياته الـ ٥٠ ، كما يعرف أيضا مشاكلها الحالية من الأزمة الاقتصادية إلى التطرف والإرهاب .

وربما لم يستطع أحد أن يخرج ما في محفوظ مثل محمد سلماوى ، فهو أديب وكاتب مسرحي ، وهو من أقرب المقربين إلى محفوظ حيث اختاره ليكون ممثله الشخصي في احتفالات نوبل عام ١٩٨٨ التي لم يستطع محفوظ حضورها ، فكان محمد سلماوى هو المؤمن على كلمة محفوظ التي قرأها بهذه المناسبة في الأكاديمية السويدية باستهوكهولم .

إلا إن محمد سلماوى ينتمي لجيل آخر غير جيل محفوظ ، وهذا الاختلاف يولد شرارة حديث شيق وحي بين الرجلين ، وقد كان هذا هو السبب الذى دعا محفوظ لاقتراح صيغة الحوار مع سلماوى لهذا الكتاب الذى يعتبر الأول من نوعه في اللغة الفرنسية ، فخلافا لما صدر من قبل في بعض الكتب الحوارية مع محفوظ يعتمد هذا الكتاب على موضوع واحد هو مصر ، مما يعطي فرصة نادرة للتعمق فيما يمثله « البلد الأم » كما يسميه محفوظ في الحوار . . البلد الذى اخترع الحضارة .

الطفولة والجمالية



○ كان من الطبيعي أن أبدأ حديثي مع نجيب محفوظ من البداية ، أى من الطفولة ، والبداية مع نجيب محفوظ لا يمكن أن تكون إلا من حي الجمالية بالقاهرة القديمة الذى شكل الخلفية لمعظم رواياته سواء القديمة أو الجديدة حتى أصبح هذا الحي القديم بمثابة أحد الأبطال الرئيسيين في روايات الكاتب الكبير خلال ما يقرب من نصف قرن من الزمان .

تلك الضاحية التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام ، حين تم تأسيس القاهرة ذاتها على يد الحاكم المعز لدين الله الفاطمي ، والذي ما زال أحد شوارع الحي يحمل اسمه ، وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن يكون شارع المعز واحداً من أكثر شوارع العالم امتلاء بالآثار ، ففيه أحد أجمل مساجد القاهرة الإسلامية وفيه مثال نادر لأحد الحمامات الشعبية القديمة والذي ما زال يمتلئ بالماء المغلي والبخار وبقية مبانيه نماذج حية للمعمار الإسلامي القديم .

□ تسألني متى بدأت أعي حي الجمالية القديم أقول لك بمجرد ما بدأت أعي ما حولي ، فأول ما جاءني الوعي بأن شيئاً موجوداً كانت الجمالية أمامي ، وربما حين كنت أعيشها لم يكن حبي لها مثلما هو الآن ، لأنها كانت شيئاً طبيعياً بالنسبة لي ، طبعياً أن أفتح عيني في الصباح فأجد أمامي بيت القاضي ودرب أرمرز ، ثم أصعد إلى سطح المنزل فأرى مثذنة جامع الحسين ، وأنزل إلى الشارع فأجد نفسى محاطاً من كل جانب بهذا المعمار القديم الذى يميز الحي .

وحين كبرت قليلاً وبدأ يتشكل لدى الإحساس بالتاريخ كنت أشاهد أهالي الجمالية يمشون في الطريق ، ويتحدثون إلى بعضهم البعض ويقضون حاجاتهم من بيع وشراء وخلافه . . فكان هؤلاء

الرجال والنساء يبدون أمامي وكأنهم جزء من التاريخ ، كانوا هم أنفسهم الفاطميين الذين بني أحد كبارهم وهو جوهر الصقلي القاهرة قبل أكثر من ألف سنة وبني أحد قادته وهو بدر الجمالي حي الجمالية الذي سمي على اسمه . . كانوا هم أيضا الأيوبيين الذي جاء منهم صلاح الدين الأيوبي وهم المماليك ومن تبعهم .

كان ذلك كله شيئا عاديا بالنسبة لي وأنا أسكن الحي ، وكان يبدو لي أن هذا هو ما ينبغي أن يكون ويسرح لجيب محفوظ بذاكرته وتخترقني نظراته التي تذهب بعيدا وهو يقول :

كم نظرت من خلف المشربية التي كانت تغطي شبابيك بيتنا القديم بالجمالية إلى شوارع الحي ! ثم تقف عيناه وكأنه وجد أخيرا ما كان يبحث عنه في الماضي السحيق :

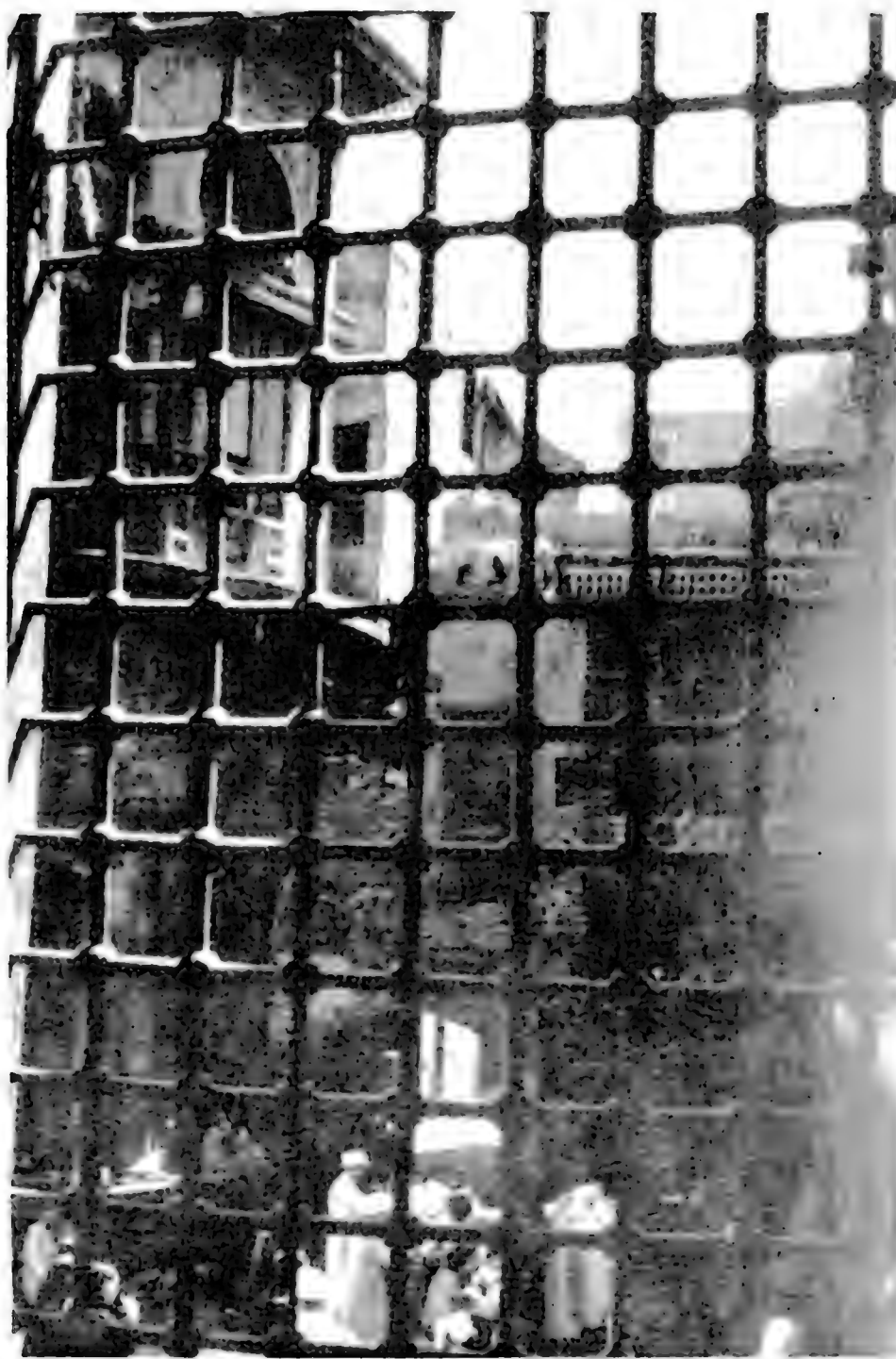
لقد شاهدت من ثقب مشربيتنا ثورة ١٩١٩ وهي تولد . . شاهدت الميدان الهادئ المليء بأشجار الصفصاف التي نطلق عليها اسم « ذقن الباشا » وقد تفجر عن الآف مؤلفة من الرجال والنساء يهتفون هتافات لا أفهمها فقد كان عمري في ذلك الوقت سبع سنوات .

○ من الغريب أن الثورتين الكبيرتين في التاريخ المصري الحديث وهما ثورة ١٩ وثورة ٥٢ قامت أولاها وأنت في سن السابعة وقامت الثانية وأنا في سن السابعة .

فيرفع نجيب محفوظ حاجبيه قائلا :

□ مصادفة غريبة . . إن التاريخ يعيد نفسه من جيل إلى جيل لأنني ابن ثورة ١٩ مثلما أنت ابن ثورة ٥٢ ، فقد نشأنا على المبادئ والمثل التي قامت عليها ثورة ١٩ كما نشأتم أنتم على مبادئ ثورة يوليو ٥٢ .

○ لقد عاشرت أنت الثورتين فلنعد بعد ذلك للمقارنة بينهما ولرويتك



لكل منهما ، لكن ليس قبل أن تكمل حديثك عن هذا الحي السحري الذي عشقته والذي ألهمك الكثير من روائعك الأدبية .

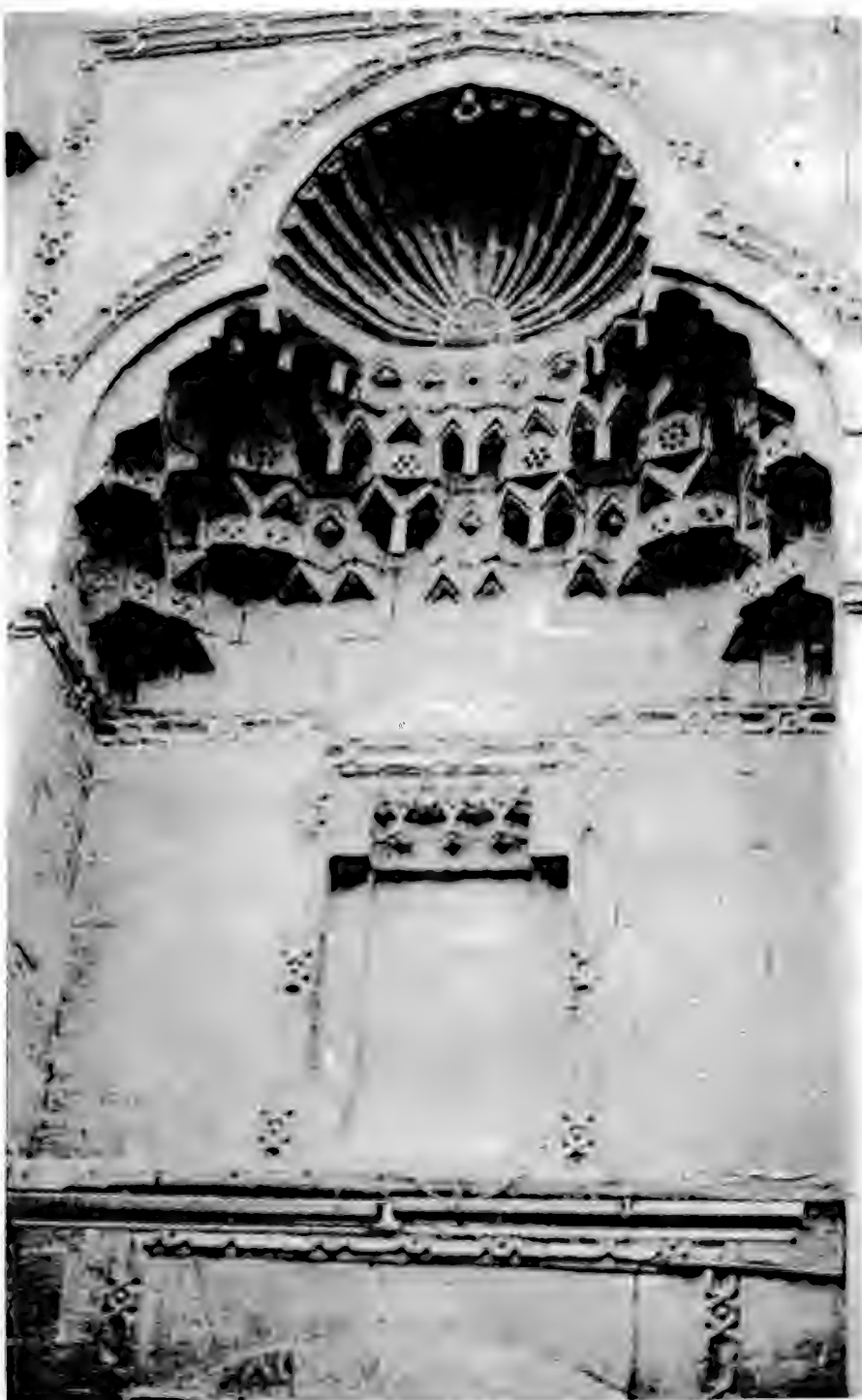
□ لقد قضيت في الجمالية أعز أيامي دون أن أدري ، لكن تلك السنين لم تدم طويلا ، فقد كان حي الجمالية كسائر أحياء القاهرة القديمة يشهد في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن عملية هجرة إلى أحياء أخرى حديثة ، فقد بدأت معظم العائلات تنتقل شمالا ، فانتقلت العائلة التيمورية مثلا والتي جاء منها أكثر من كاتب وكاتبة إلى حي الحلمية بينما انتقلنا نحن إلى حي العباسية .

ولقد سررت في البداية لذلك لأننا تركنا الحي الشعبي إلى منزل بحديقة ، فيما كنا نطلق عليه حي الدوات الذي كان الجانب الشرقي منه مليشا بالسرايات . . إن نصف العائلات التي سكنت العباسية الشرقية جاءت من درب أرمر مثل عائلات السيسي والمهيلمى والحربوطي .

لكن ما إن استقرنا بالعباسية حتى بدأ يظهر عندى حب الجمالية الذي لم أبرأ منه بقية حياتي ، فكل جمال الحي الجديد والأصدقاء الجدد الذين عرفتهم لم يستطيعوا أن ينسوني حيّا القديم .

فالذى حدث هو أنني بدلا من أن أندمج في حياة العباسية ، فقد نجحت في أن أقنع العباسيين (أصدقاء العباسية) بأن يأتوا معي ليتعرفوا على الحي الذى ولدت فيه ، وهكذا لم يكن يمر أسبوع دون أن نذهب إلى الحي القديم ، حيث كنا نجلس في قهوة الفيشاوى وفي قهوة أخرى قديمة كانت في زقاق المدق ، أما في الإجازات فكنت أذهب يوميا إلى حيي القديم فأجوب وحدي الطرقات التي كنت أمشي فيها مع والدتي حين كنا نسكن الحي ، وكنت أنظر إلى بيتنا القديم فأجده جميلا جدا ، كان مبنيا على الطراز القديم ، وكانت تزين واجهته مشريتان جميلتان ما زلت أذكرهما .

ويصمت نجيب محفوظ قليلا فلا أقاطع صمته إلى أن يقول :



□ للأسف إن منزلنا القديم بالجمالية تحول بعد ذلك إلى قهوة إلى أن هدم ، وأقيمت بدلا منه عمارة من عدة طوابق قبيحة الشكل .

○ كيف كان المنزل وقت كنت تسكنه ؟

□ كان مكونا من ٣ طوابق ، لكن كان بيتا صغيرا فكان كل دور فيه يتكون من غرفتين ، لذلك من كان يسكنه كان يسكن رأسيا وليس أفقيا ، وقد كانت غرفتي في الدور الثاني مع والدتي ، وفي الدور الأول كانت هناك غرف الضيوف أو ما كان يطلق عليه في ذلك الوقت غرفة المسافرين حيث كان يبيت فيها من كانوا يأتون لزيارتنا من خارج القاهرة ، أما في الدور العلوى فكان يسكن أشقائي وشقيقتي قبل أن يتزوجوا ويتركونا إلى بيوت أخرى .

○ إن هذا الحى بسحره القديم ألهمك الكثير من أعمالك الروائية في فترات مختلفة من حياتك ، فقد كنت في بعض الأحيان تتركه لتعود إليه مرة أخرى في عمل جديد .

□ لقد ألهمني هذا الحى أشهر أعمالى جميعا وهو « الثلاثية » .

○ لكنه ألهمك أيضا « خان الخليلي » قبل ذلك و« زقاق المدق » ، بل إن بعض قصصك القصيرة التى تنشر الآن وهي آخر ما كتبت يدور بعضها في الجمالية حتى لو لم تسمه في القصة .

□ إن هذا الحى كان يلهمني ، لكنه أكثر من ذلك كان يتمتعني بأهله الذين مازالت فيهم سمات أجدادهم الذين كانوا يسكنون نفس هذه البيوت القديمة ، وكانوا يقومون بنفس الأعمال والحرف في حواريه الضيقة وفي أزقته .

○ إن الحارة في أعمالك هي رمز لأشياء كثيرة .

□ نعم ، إنها في بعض الأحيان الحارة الواقعية التى عرفتها في طفولتي ، وأحيانا هي رمز للوطن مثلما في « زقاق المدق » ، وأحيانا هي رمز للعالم كلها مثلما في « الحرافيش » أو في « أولاد حارتنا » .

ثم يقول « الأستاذ » كما نسميه نحن أصدقاءه المقربين ومريديه
وكما سأسميه هنا :

□ لكنني أرى أن المدينة الحديثة بكل مشاكل سكانها المعاصرين
هي محور أعمالك الأدبية خاصة في المسرح .



إن بعض الذكريات تعود بي إلى سن السابعة حين بدأت لأول
مرة أجرب الصيام في شهر رمضان ، كنت في هذه السن المبكرة
أصعد إلى سطح بيتنا .

وأظل أنظر إلى مثذنة جامع الحسين في انتظار أن أسمع صوت
المؤذن معلنا حلول المغرب ، وفي طفولتي هذه كان رمضان هو
الشهر الوحيد الذي يسمح لي فيه أن أخرج في الليل ، وأن ألهو
بالفوانيس مع أصدقائي ونغني « وحوى يا وحوى » .

أما في الكبر فكان اليوم مختلفا حيث كنت أمضى وقتا طويلا
من نهاري في القراءة ، سواء كانت القراءة الدينية أو الأدبية ،
وكنت ألاحظ أن تذوقى للقراءة خلال أيام رمضان كان أعمق بكثير
من بقية شهور السنة . هل يخلق الصيام في الإنسان نوعا من
الشفافية يجعله يصل إلى أعماق قد لا يدركها وبطنه ممتلىء ؟ أم
إنه يعطى دفعة روحية للصائم تظهر علاماتها في هذا التذوق
المرهف ؟

على أن ما أفتقده الآن في رمضان هو جو الحسين بعد الإفطار ،
فقد كانت جميع البيوت الكبيرة تقدم سهرات مديح نبوى تقرأ فيها
التواشيح النبوية بأصوات أفضل منشدى العصر مثل على محمود
الذى كان أسطورة آنذاك ، وكانت بيوت أخرى تفتح « المنذرة »
للجميع ابتداء من المغرب حين كان يقدم الإفطار ثم تبدأ تلاوة
القرآن إلى وقت السحور ، وكان القراء يتبارون ما بين بيت وبيت ،
فتتصاعد أصواتهم في عزف متناغم لا تنافر فيه بعكس تلك
الميكروفونات القبيحة التي نعرفها اليوم والتي تتداخل أصواتها
بطريقة ميكانيكية لا تناغم فيها ولا انسجام .



ولقد كنت خلال شهر رمضان أمضى الليل كله فى الحسين إلى أن يحل موعد السحور فأتسحر مع أصدقائى فى قهوة الفيشاوى ثم أعود إلى البيت ، وحين انتقلنا إلى العباسية كنت أواظب على هذا البرنامج وأعود فى الفجر مع أصدقائى عن طريق الجبل حيث أقيم الآن طريق صلاح سالم وفى ذلك الوقت لم يكن به بيت واحد قائم .

ربما كان ذلك هو أحد الفوارق بين جيل ثورة ١٩ وجيل ثورة ٥٢ ، فتورة ١٩ كما قلت نشأت فى الأحياء القديمة وكانت تطالب بالحرية والاستقلال ، أما ثورة يوليو التى حققت الاستقلال منذ سنواتها الأولى فقد انصرفت إلى تأسيس الدولة الحديثة ، كما أن سعد زغلول هو ابن المجتمع الريفي القديم أما جمال عبد الناصر فهو ابن المدينة .

○ لكن قل لي إلى متى ظللت تردد على حيك القديم ؟

□ طوال حياتي ، فحتى بعد أن أكملت دراستي بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وعينت موظفا بوزارة الأوقاف كنت أحرص على أن أذهب مبكرا إلى الجمالية حيث كنت أجلس قليلا على أحد مقاهيها القديمة لأدخن الشيشة قبل أن أذهب إلى العمل .

ولقد اكتشفت خلال هذه الزيارات الصباحية أنني لست الوحيد من سكان الجمالية القدامى الذى لم يبرأ من حب الحى ، فكثيرا ما كنت أشاهد أحمد تيمور (بك) سليل العائلة التيمورية والأمين بالقصر الملكي مع خياط من الحى يتناولان أفطارهما المكون من الفول والبصل الأخضر ، وكنت : أتساءل كيف يستطيع أحمد (بك) أن يقوم بمهام منصبه بالقصر ويحضر مقابلات الملك بعد أكل هذا البصل ذى الرائحة النفاذة ؟ خاصة وأن الملك فؤاد كان معروفا بالشدة والصرامة ، لكنه حب الجمالية الغالب دائما .

○ فى أى ساعة كان يبدأ عملك بوزارة الأوقاف فى الصباح ؟

□ فى الثامنة صباحاً .

○ ألم تتأخر فى أى يوم بسبب هذه الزيارات الصباحية للجمالية ؟

□ إننى لم أكن أذهب للجمالية كل صباح ، لكن فى الأيام التى كنت أذهب إليها كنت أصل إلى عملي فى الموعد المحدد .

ثم يتسم قائلاً :

كما تصلني أنت دائماً فى الموعد المحدد .

○ ذلك لعلمي بحبك للدقة والنظام والانضباط فى المواعيد .

وكان الأستاذ يشير بذلك إلى واقعة حدثت فى بداية حديثه هذا ، حيث كنت دائماً على موعد معه فى السادسة مساء يوم السبت من كل أسبوع بمنزله الواقع على النيل بضاحية العجوزة بالقاهرة ، ونظراً لضعف سمعه الذى اشتد عليه فى السنوات الأخيرة فلم يكن يسمع جرس الباب ، وكانت دائماً السيدة عطية الله زوجته (أو إحدى ابنتيه أم كلثوم أو فاطمة) هى التى تفتح الباب ، لكن فى هذا اليوم ما إن ضغطت زر الجرس حتى وجدت الأستاذ نجيب محفوظ يفتح لى بنفسه ، ولم أتمالك نفسي فى أن أسأله بعد ذلك كيف سمع جرس الباب ؟ فقال لى ببساطة :

أنا لم أسمعه ولكنى تعودت أن تجيئنى دائماً فى الميعاد لذلك حين وجدت الساعة السادسة فتحت الباب فوجدتك أمامي .

ونعود إلى حديث الجمالية فسألته :

○ متى كانت آخر مرة زرت فيها الجمالية ؟

□ لقد ظلمت أزورها إلى أن منعنى حادث الاعتداء من ذلك ، أولاً بسبب خضوعي للعلاج ثم بسبب إجراءات الأمن المفروضة على الآن والتي يمنعوننى بمقتضاها من الوجود فى الأماكن المزدحمة بالناس والتي أمضيت بها الجزء الأكبر من حياتي .

ويصمت قليلا ثم يضيف :

□ الآن حين يستبد بى الحنين فياني أخرج مع الأصدقاء حيث
أنظر للحي من داخل السيارة ونحن نمر فوق الكوبرى العلوى فأرى
مئذنة جامع الحسين ، أوقهوتي التى اعتدت ، وأتخيل حوارى
الجمالية الصغيرة والأزقة التى لا أظن أننى سأراها ثانية .



وجـه

إن ارتباط محفوظ بمصر ليس ارتباطاً معنوياً فقط ، وإنما هو أيضاً ارتباط جسدي حيث لم يرح الكاتب الكبير مصر إلا ثلاث مرات طوال ٨٥ عاماً ، وقد كان في كل مرة منها مضطراً لذلك . أولاً إلى اليمن حين طلبت القيادة السياسية في الستينات من كبار الكتاب الاطلاع على الحرب التي كانت دائرة هناك ، والتي كانت مصر طرفاً فيها وإبداء رأيهم في جدوى تلك الحرب ، والمرة الثانية في نفس الفترة حين صدر قرار بتشكيل وفد من الكتاب المصريين لزيارة يوجوسلافية كنوع من التبادل الثقافي بين البلدين اللتين كانت هناك علاقة صداقة قوية تربط بين قائديهما عبد الناصر وتيتو .

وقد امتنع محفوظ بعد ذلك عن السفر خارج مصر إلى أن اضطر عام ١٩٩١ لإجراء عملية جراحية أخذته إلى عاصمة الضباب : لندن على أن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن نجيب محفوظ مع ذلك هو أكثر الكتاب المصريين انفتاحاً على حضارات العالم وآدابها ، فهو لا يعرف الشوفينية قط وتأثره بالأدبين الفرنسي والإنجليزي لا يخفيه عن أحد .

أسأل نجيب محفوظ عن مصر ، ذلك البلد الذي أصبح يمثل ويرمز له أكثر من أي كاتب آخر في التاريخ الحديث ، حتى أصبح نجيب محفوظ ومصر يكادان يكونان مترادفين ، فمن هي مصر بالنسبة له وكيف يراها ؟ هل هي مجرد قطعة الأرض التي نشأ عليها أم هي أكثر من ذلك ؟

فيقول الأستاذ :

□ لا ، مصر ليست مجرد قطعة أرض ، مصر هي مخترعة الحضارة ، لذلك فهي في التاريخ الإنساني بمثابة البلد الأم ومهما آل إليه أمرها فإن ذلك يجب أن يحفظ لها اعتباراً خاصاً واحتراماً بين الأمم تماماً مثل ما يستحقه الأب والأم من اعتبار حتى وإن فاقهما الأبناء في الثراء أو فاقوهما في العلم أو القوة .

ولأن مصر هي أقدم الحضارات فقد توالى عليها الأمم جميعا فبعد الفراعنة جاء الفرس ثم الإغريق ثم الرومان ثم العرب وهكذا ، وقد كان من نتيجة ذلك أن أصبح وادى النيل كتابا عالميا لجميع الحضارات ، فكل حضارة جاءت وتركت توقيعا في هذا الكتاب ، ففي القاهرة تستطيع أن تشاهد الآثار المصرية القديمة والرومانية والإغريقية والقبطية والإسلامية إلى جانب الحضارة الحديثة .

ثم يرفع الأستاذ أصبعه قائلا : هنا تاريخ البشرية كله فلا أعتقد أن ذلك التاريخ تجمع لبلد آخر كما تجمع لمصر ، وقد احتضنت مصر كل هذه الحضارات في أمومة واضحة ولولا ذلك لما مكثت فيها هذه الحضارات ولما تركت فيها بعضا منها .

○ ما الذى أهل مصر لذلك ؟

□ إنه قدرها وحظها فى الحياة وما كتب لها أن تلقاه وتعامل معه بخيره وشره .

○ يقال إن نابليون بونابرت قال إن مصر أهم دولة فى العالم .

□ بالنسبة لرجل جاء لكي ينشئ إمبراطورية عالمية فليس غريبا أن يكون قد قال ذلك لأنه وجد فى مصر المركز الحقيقي لهذه الإمبراطورية .

إن ذلك الموقع الجغرافى الفريد أعطى لمصر ميزة بين الأمم توازى ميزة حضارتها بين سائر الحضارات ، فموقعها مفصلي في نقطة التقاء قارات العالم الثلاث الكبرى والذين كانوا في الجزء الأكبر من تاريخ الإنسانية هم العالم كله .

○ من الغريب أنه مثلما ترك الغزاة آثارهم في مصر فمن الملاحظ أن مصر قد تركت هي الأثرى تأثيرها على هؤلاء الغزاة دون أن تبرح مكانها ، من الإسكندر الأكبر إلى بونابرت ، فقد تأثر الإسكندر بمصر لدرجة أنه سمى نفسه ابن آمون إله المصريين ، ولبس لباس الفراعنة وأوصي بعد موته بأن يدفن في أرض مصر .

أما نابليون فقد عاد إلى فرنسا حاملا معه ما أصبح يعرف باسم « الولع بمصر » Egyptomane فبدأ عهد من الدراسات المصرية غير مسبوق ، وتغلغل مصر في كل جوانب الحياة في فرنسا حتى في الأثاث ، فقد تحولت طرز لويس الخامس عشر والسادس عشر إلى طراز الإمبراطورية الذي ملأته الأشكال الفرعونية ، ثم عاد نفس الطراز بعد ذلك بسنوات يلح مرة أخرى فيما عرف بعودة مصر retour d' Egypte .



فيقول الأستاذ :

□ إن لمصر سحرا خاصا لا يستطيع أن يتحدث عنه إلا من عرفه ، ولقد جاءها الغزاة بالجوش والأساطيل فغزتهم هي بالحضارة لأن حضارتها كانت أقدم وأعرق من حضارة كل من غزاها .

إن قدرة مصر وصلت إلى حد استيعاب كل من غزاها حتى أصبح الغزاة يتشبهون بها ، ويتخذون من عاداتها بل ومن دياناتها عادات وديانات لهم ، وقد جعلها هذا في حقيقة الأمر غير محتلة ، لأن الحاكم الأجنبي كاد يصبح في النهاية مصرياً وخير مثال على ذلك كليوباترا مثلاً .

ولم يكن هذا هو الحال في التاريخ القديم فقط ، وإنما أيضا في العصر الحديث ، فإذا أخذنا على سبيل المثال محمد علي ذلك العسكرى الألبانى الذى استقل بمصر وحكمها هو وأبنائه ، وقد كان آخرهم فاروق الذى خلعته ثورة ١٩٥٢ . . من ذا الذى يستطيع أن يقول إنهم لم يكونوا مصريين ؟ إن محمد علي هو الذى أخرج المصريين من ظلمة التاريخ الى مسرح الحياة ، ورفض الشعب للملك فاروق في نهاية عهده لم يكن من منطلق أنه ليس مصرياً ولكن بسبب فساد حكمه .

○ لكننى ألاحظ فى بعض رواياتك أن هناك تفرقة بين التركى والفلاح ، وأذكر فى الثلاثية على سبيل المثال أن تقدم أحد أبناء الفلاحين للزواج من بنت إحدى العائلات ذات الأصل التركى وكانت مصر فى ذلك الوقت جزءا من الإمبراطورية العثمانية ، وقد طرد شر طردة بعد أن

رفضته العائلة ، فكيف تزوج العائلة التركية ابنتها لأحد أبناء الفلاحين ؟
وحين علموا أنه قد تعلم بعد ذلك فى الخارج وحصل على أكبر
الشهادات اعتبروا تلك مصيبة أكبر وأصروا على رفضهم .

□ نعم ولكن تلك كانت تفرقة طبقية أكثر منها تفرقة عرقية ،
فتلك العائلة التى رفضت العريس الفلاح لم تفعل ذلك بسبب
أصولها التركية ، وإنما بسبب الفارق الطبقي بينها وبين عائلة
العريس .

○ إن خاصية استيعاب من يأتى من الخارج التى تتحدث عنها هى
خاصية مصريه صميمية ، وقد أضيف الى محمد على الجنرال الفرنسى
دى سيف de Seve الذى استوطن مصر ، وأصبح سليمان باشا الذى
يقود الجيوش المصرية .

لكنى أذكر مثلاً حين زرت استراليا أننى عجبت لأن معظم المدن
الاسترالية تقع على السواحل أما قلب القارة فيكاد يكون خالياً ،
وقد قال لى المؤرخ الاوسترالى الشهير ما نينج كلارك : إن السبب
فى ذلك أن كل من جاءوا إلى اوستراليا جاءوا رغماً عنهم ، لذلك
ظلوا شاخصين بأبصارهم عبر البحر إلى البلد الأم إنجلترا ، وظل
بداخلهم حنين قوى للعودة إليها ، لذلك سكنوا الشواطئ ولم
يدخلوا قلب القارة .

فيقول الاستاذ :

□ والغريب فى الأمر أنك إذا قارنت مساحة مصر بمساحة
أوستراليا وجدت أن مصر هذه ذات التاريخ العريق والحضارة
السامية ليست سوى شريط رفيع على جانبي النهر وبقية أرضها
صحراء خالية . . لكن المسألة فى النهاية ليست مساحة الأرض وإنما
هى الروح التى تسكن تلك الأرض ، فهذا الشريط الرفيع هو الذى
خلق القيم الأخلاقية وهو الذى عرف الوحداية
الدينية Monotheisme وهو الذى ابتدع الفنون واخترع العلوم وبدأ
أساليب الإدارة ، وقد كانت تلك العوامل كلها هى التى أعطت

للمصري القدرة على البقاء فى الوقت الذى اندثرت فيه حضارات
وشعوب أخرى .

○ وأين يكمن السر فى هذه القدرة ؟

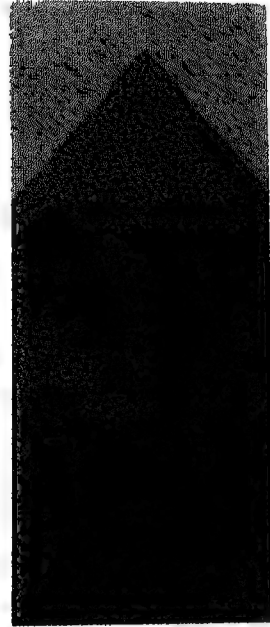
□ السر يكمن فى أن المصرى كان أول من أخرج الحياة من
الأرض ، لذلك فهو حريص على هذه الحياة ويعرف كيف يحافظ
عليها ، إن المصرى القديم هو مكتشف الزراعة وهو أول من قدس
الخضرة ، وهو بهذا المعنى أول «الخضر» الذين عرفهم التاريخ
الإنسانى ، ولقد شعر المصرى على مر العصور أن مهمته هى أن
ينمى الحياة لأنه خلقها ولقد حول الأرض إلى نبات تنمو به الحياة
التي يقدسها .

○ يقال إن المصرى هو أكثر من قدس الموت وأبقى حياته فى بناء
القبور ..

فيقاطعى :

غير صحيح ، إن الموت الذى اهتم به المصرى القديم حين تتمعنه
تجده امتدادا للحياة التى عرفها وأحبها وقدسها ، فأراد أن يأخذها
معه إلى العالم الآخر ، لذلك تجدد فى مقابر المصريين جميع أنواع
الطعام والشراب بل والراقصات والأشعار وعازفى الموسيقى
ورحلات الصيد وخلافه ، وهذا ليس الفناء الذى يتصوره العالم
الحديث ، إنما هو انتقال بالحياة ذاتها وبكل مباحثها إلى العالم
الآخر ، لذلك فحين يفنى المصرى حياته فى تحنيط أمواته ، وفى بناء
القبور لهم فهو بذلك إنما يتحدى الفناء لتمتد الحياة فيما بعد الموت .

ثم يضيف الأستاذ : النقطة الثانية هى أن المصرى هو مخترع
الأخلاق ، ولقد سبق بذلك أدياننا السماوية ، والأخلاق ليست
فقط نظاما للتعامل بين الناس ولكنها هى التى تنظم المجتمع وتحميه
من الفوضى والفناء .





أى الأمل ص ؟



وأقول لنجيب محفوظ :

حين نتحدث عن مصر ، عن أى الأمصار نتحدث فهناك مصر
الفرعونية ، ومصر اليونانية الرومانية ، ومصر القبطية ومصر الإسلامية
ومصر الحديثة ، ثم هناك أيضا مصر البحر المتوسطية ومصر الإفريقية
ومصر الآسيوية .

□ إن مصر هي كل ذلك ، وغير ذلك لأن تلك الصفات ليست
قائمة بذاتها ، وإنما حين قدمت إلى مصر وامتزجت بمصر صارت
شيئا آخر ومصر كما أعرفها ليست نتاجاً لجمع كل الصفات ، وإنما
هى نتاج جديد ومنفرد نشأ عن هذا الامتزاج ، تماما كالأوكسجين
والهيدروجين اللذين لا يكون اجتماعهما هو أوكسجين زائد
هيدروجين ، وإنما هو شيء جديد يختلف فى خصائصه عن كل
منهما ، وبقدر اختلاف الماء عن الغاز كان اختلاف مصر الحالية عن
كل من هذه الهويات الحضارية ، فالمعمار الإسلامى فى مصر مثلاً
ليس هو المعمار الإسلامى فى تركيا أو فى المغرب ، والكنيسة
القبطية ليست هى الكنيسة المسيحية الأوروبية .

إن للشخطة المصرية جوانب متعددة لا شك فى هذا ، لكنها
كلها مصر وليست شيئاً آخر .

○ وأى تلك الجوانب أقرب إلى قلبك ؟

□ إنني أجد فى نفسي ميلاً أكثر إلى مصر الإسلامية ، التى
تختلف عن إيران الإسلامية أو السعودية الإسلامية أو اندونيسيا
الإسلامية أو أفريقيا الإسلامية ، وربما كان ارتباطي بها لأسباب
شخصية ، فأحياء القاهرة الإسلامية القديمة هي التى ولدت بها

وتشربت بروحها وكل حركة من حركتها تمثلتها تماما وعشقتها تماما، وأقصد الأحياء المملوكية والأيوبيّة والفاطمية بشكل خاص .

ثم تليها عندي مصر الفرعونية التي هي الأصل وبداية الحضارة . والحقيقة أنك حين تتكلم عن مصر القديمة يتسع القول، فهي إلى جانب اكتشافها الزراعة فإنها أيضا مخترعة الأبجدية، وهي كما قلنا أول من وضع الأخلاقيات وبشر بالقيم السامية فكان أن بزغ فيها الضمير الإنساني .

○ وماذا أضافت مصر الإسلامية إلى مصر الفرعونية ؟

□ أضافت في المقام الأول العقيدة ، فحين فتح الإسلام مصر لم يأت إليها بحضارة جديدة أو متفوقة على حضارتها ، وإنما أتى إليها بعقيدة سامية وبكل ما كانت تمثله تلك العقيدة من مبادئ ومثل، ومنها ما لم تكن مصر القديمة قد توصلت إلى تحقيقه وهو مبدأ العدالة والمساواة بين كافة البشر والتي تعتبر ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية التي لا تعرف فرقا بين الأسود والأصفر والأبيض ، ولا فرق بين الغني والفقير ، ولا بين الحاكم والمحكوم وعمر بن الخطاب كان خير تجسيد لذلك .

إن الإسلام جاء إلى مصر بالعقيدة ، كما ذهب إلى الشام وإلى بلاد الفرس ، فمثلما كانت لمصر حضارتها كانت في الشام حضارة بيزنطية ، وفي إيران كانت الحضارة الفارسية . ولو كانت العقيدة الإسلامية ضعيفة لانغلقت على نفسها ، ورفضت تلك الحضارات، لكنها على العكس من ذلك اختلطت بها فأثرت فيها وتأثرت بها لأن الإسلام كان دين عقل ومعرفة وعلم فاستخلص من هذه الحضارات أحسن ما فيها، وترجم وأضاف إليه فكانت الحضارة الإسلامية ، ولذلك نجد أن مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية ونموها هي مراكز حضارة القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة .

○ وماذا عن مصر القبطية ؟

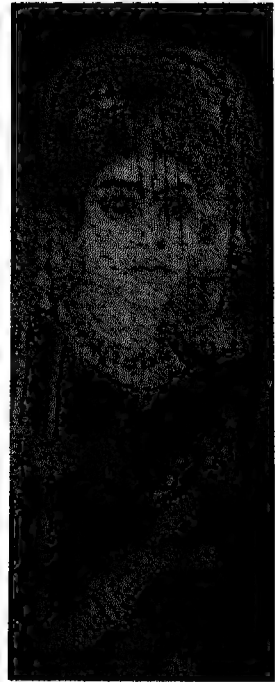
□ إن مصر القبطية تعتبر نسبيا فترة قصيرة فى حياة مصر بالمقارنة مع الآف السنين التى عاشتها الفرعونية قبل ذلك أو الاسلامية بعد ذلك ، لكنها مع ذلك كانت فترة هامة جدا أثبتت أن الروح المصرية التى ذكرناها قبل ذلك لا تموت أبدا مهما وصل الاحتلال فى محاولاته لطمس الهوية المصرية . إن مصر القبطية هى الرد الوطنى على الاحتلال الرومانى الذى رغم أنه دام طويلا إلا أن مصر رفضته واتخذت لنفسها دينا مغايرا لمعتقدات الاغريق والرومان ، ولرغبتها وتحملت فى سبيل ذلك أهوالا كبيرة ، ولا عجب أن تلك الفترة شهدت ثورات وتمردات كانت حلقات متصلة للمقاومة الشعبية فى ذلك الوقت .

ثم يقول الأستاذ :

□ إن القبط هم الذين حافظوا على روح مصر القديمة ، ومصر القبطية لذلك هى همزة الوصل بين التاريخ المصرى القديم والتاريخ الحديث . وحين وصل الإسلام مصر وجد أن حضارتها القديمة مازالت قائمة فخلصها من الظلم الرومانى ومنع الأقباط حقوقهم ثم اندمج مع مصر إلا أن أعمدة الإسلام المصرية كانت هؤلاء القبط الذين دخل الكثير منهم الدين الإسلامى ، واتخذت الكنيسة القبطية اللغة العربية لغة رسمية لها بعد أن أصبح يتحدثها كل سكان مصر ، ولقد تركت لنا مصر القبطية العديد من الآثار والأعمال الفنية المتميزة .

ثم يذهب نجيب محفوظ بفكره بعيدا ليعود بعد لحظات قائلا :

إن لمصر القبطية هوى خاصا فى نفسى يعود فى جزء منه بلا شك إلى أننى مصرى ، لكنه فى جزء آخر يعود لأيام الطفولة . . لقد كانت والدتي سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب لكنها كانت على درجة عالية من الثقافة ، ففى الوقت الذى كان يمكن لمشيئاتها أن يكتفين بأخذ أطفالهن إلى حديقة الحيوان مثلا كانت أمى تأخذنى دائما إلى





زيارة آثار مصر القديمة ، وقد كانت تقف أمام قلعة صلاح الدين أو الكنيسة المعلقة بنفس الانبهار الذى تقف به أمام أهرامات الجيزة ، ولقد عرفت منذ طفولتي المبكرة - حيث لم يكن عمرى قد تخطى سن الرابعة فى ذلك الوقت - عظمة كنيسة أبو سيفين ومار جرجس التى لا تأتى من أبهة الطراز التى تعرفها الكنائس الكاثوليكية ، وإنما من نقشها الكلاسيكى الذى يذكرنا بالآثار المصرية القديمة ، كما عرفت أيضا فى ذلك الوقت جمال النسيج القديم بالمتحف القبطي الذى زرته عدة مرات مع أمى .

○ وأسأل لمجيب محفوظ عن مصر الإغريقية الرومانية .

□ فيقول : إن أكثر ما يستلفت النظر فى التراث الإغريقي الروماني فى مصر هو تأثيره الشديد بالفرعونية ، فقد مكثت تلك الفترة سنوات طويلة حتى صارت جزءا لا يتجزأ من التراث المصرى ، فمن ذا الذى يستطيع أن يقول : إن كليوباترا ليست مصرية ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يقول : إن معمار أبينتها ليس فرعونيا رغم أعمدته الآتية من الطرز الأيونية ionique أو الدورية dorique ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يقول : إن الإسكندرية ليست مصرية ؟

فالحقيقة أن تلك الفترة تعتبر تطورا جديدا على الإغريقية القديمة ، فقد تأثر الفكر الإغريقي بما وجدته فى مصر ، فأخرج فلسفات جديدة أخلاقية وصوفية لم تكن معروفة فى الفلسفة الإغريقية القديمة ومدرسة الإسكندرية شاهدة على ذلك وكذلك مكتبة الإسكندرية Bibliotheka Alexandrina وفلسفة أفلوطين التى كان أول من بشر بها أحد مواليد أسوط .

ويمضي استعراض الأستاذ لتاريخ مصر حتى يصل إلى عصر محمد على فى بداية القرن التاسع عشر ، والذى يصفه بأنه كان مقدمة النهضة الحديثة فى الوطن العربي ، وفى العواصم الإسلامية ، فمصر محمد على هى التى اتصلت بأوروبا فحدث

التفاعل بين الأفكار الغربية الحديثة ، والتراث الإسلامي العريق
فانطلقت شرارة التقدم .

○ ألا ترى أنه رغم التباين الشديد ما بين المؤثرات المختلفة التي
تعرضت لها مصر طوال تاريخها إلا أن المصري هو المصري بنفس طباعه
القديمة ؟ هو نفس الإنسان المحب للحياة والتسامح والإخاء ، وحياته
مازالت في بعض الأحيان هي نفس حياته القديمة ، فالفلاح مازال
يستخدم الشدوف الذي وجدنا رسومه على الجدران الفرعونية ، بل إن
الكثير من الطقوس الإسلامية الحالية لا تأتي من الإسلام ، وإنما من
العادات الدينية التي كانت سائدة في مصر القديمة مثل « الخمسان »
وذكرى الأربعين التي انتقلت بعد ذلك من مصر إلى دول إسلامية
أخرى .

□ في ذلك قدر كبير من الحق لكنه ليس الحق كله ، فإلى جانب
بعض الجوانب التي ظلت في شخصيتنا منذ العهود القديمة إلا أننا لا
ينبغي أن ننسى أن الإسلام قد أعاد خلق الشخصية المصرية ،
صحيح أنه لم يمح الجذور لكنه قد أعادها في طبيعة وتكوين
جديدين أكثر من أية فترة أخرى تالية للفترة الفرعونية .

○ ألم تقم مصر بإعادة صياغة الإسلام أيضا ؟ إن الإسلام الذي نعرفه
في مصر يختلف إن قليلا أو كثيرا عن إسلام إيران أو إسلام ماليزيا أو
أوزبكستان ، لقد أعادت مصر تصدير هذا الإسلام إلى أجزاء كثيرة من
العالم العربي .

وعلى سبيل المثال فإن طريقة إنشاد القرآن التي تعرف باسم
التجويد قد نشأت في مصر اعتماداً على الإنشاد الذي أخذته
الكنيسة القبطية من الغناء الديني في مصر الفرعونية ، ولقد
أصبح التجويد الآن هو الإنشاد السائد في العالم العربي
للقرآن .

بلا شك قد أعطت الإسلام صوتا جديدا ، وإن كانت بالطبع لم
تضف إلى الإسلام أركاناً فكرية جديدة ، ونظرا لمكانة مصر الثقافية

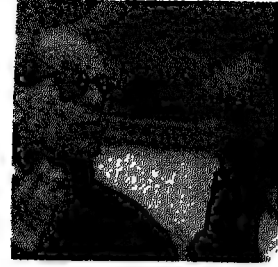
والحضارية فى العالمين العربى والاسلامى فقد انتشر هذا الصوت الذى يختلف عن الصوت الذى كان فى البادية .

إن إسلام مصر يمثل الاعتدال الذى عرف دائما عن مصر، والسماحة وكرامية التطرف فى كل شىء ، فالمصرى متدين لكنه مثل جده الفرعونى القديم يقول « ساعة لربك وساعة لقلبك » ، إن المصرى هو الذى صنع من المناسبات الدينية المقدسة مهرجانا للابتهاج بالحياة مثل الموالد ومثل شهر رمضان الذى يقوم فيه المصرى بالصيام لربه والتكشف طوال اليوم ، ثم ما إن تغرب الشمس حتى يتفنن فى الاستمتاع بمباهج الحياة .





النيل ملك



وأقول للأستاذ:

○ لقد تغلغل النيل في الكثير من أعمالك الأدبية ، ابتداء من المرحلة الأولى الفرعونية حيث الاحتفال الكبير بالنيل في رواية « رادويس » إلى وصفك للنيل أثناء مشاهد الحرب في « كفاح طيبة » .

حتى يكاد النيل يتحول في روايات لجيب محفوظ الى رمز متجدد يحمل من المعاني والإيحاءات ما يعجز عنه أى رمز آخر يحمل معنى واحداً فقط .

وقد ذكرت لى مرة حين بدأ نظرك يضعف ، أنك لا تفتقد شيئاً قدر افتقارك لرؤية النيل الذى امتدت علاقتك به فى مختلف مراحل حياتك وظروفها المتنوعة .

فيقول :

□ إن أول ما تذكر مصر بذكر شيثان : النيل والأهرامات ، لكن النيل هو الأقدم لذلك فالنيل ليس من الأشياء التى يمكن غض الطرف عنها أو تجاهلها فى مصر ، ورغم أننى ولدت ونشأت فى حي شعبي بعيداً عن الحدائق والماء ، إلا أننى تربيت على عشق النيل منذ الصغر . فقد كانت والدتي حين تصحبني للفسحة تأخذني الي شاطئ النيل ، تماماً كما كانت تأخذني لمشاهدة الآثار القديمة ، والمتاحف وأضرحة الأولياء .

كانت والدتي مغرمة بالخضرة وبالمياه ، وكانت نظرتها للنيل - تماماً كنظرتها للآثار - بها مسحة من التقديس ، ولقد بهرت بالنيل وبجماله منذ الصغر ومازلت أذكر كيف كنت أتدلى من سور

كوبرى أبو العلا ، لأنفجر على تدفق مياه النيل ووالدتي ممسكة بي حتى لا أسقط فى الماء .

وفى مرحلة الصبا حين انتقلنا من حى الجمالية القديم الى العباسية ، كنت أنا وأصدقائى الجدد نخرج فى نزعات نيلية بالمركب الشراعية فى ساحل روض الفرج ، وقد كان بإمكانك فى ذلك الوقت أن تستأجر قارباً كبيراً يسع ما يقرب من عشرين شخصاً من ساعة الغروب وحتى الفجر بخمسين قرشاً فقط !

كان أصدقائى جميعاً خبراء فى العوم إلا أنا وأذكر مرة أنه لم يبق بالمركب غيرى بعد أن قفزوا جميعاً الى الماء بلباس البحر ليسبحوا فى ضوء القمر ، وإذا بإحدى الغارات الجوية للحرب العالمية الثانية تفاجئنى وأنا وحدى وسط النيل .

فى هذه السنوات كنت قد انتقلت الى مرحلة الدراسة الجامعية ، وكنت أثناء فترة الراحة بين محاضرات الفترة الصباحية وفترة بعد الظهر لا أعود الى العباسية بل أمضى هذه الساعات مع أصدقائى فى النيل بالجيزة . . كنا نستأجر قارباً ونجذف فى النيل وكان أصدقاء هذه الصحبة هم زملائى بالكلية الدكتور على أحمد عيسى أستاذ الاجتماع بالإسكندرية بعد ذلك ، وتوفيق الطويل ، وعبد الهادى أبوريدة ، وأديب مبرى وآخرهم الدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ المعروف والذى توفى أخيراً ، كنا جميعاً بقسم الفلسفة ، وكان حسين بقسم التاريخ .

كان النيل بالنسبة لى فى تلك الأيام هو مكان «الفسحة» ، ووسيلة الترويح لكن فى تلك الفترة أيضاً كانت المرة الأولى التى يصيبنى النيل بالرعب الحقيقى .

كنا نجذف فى النيل وإذا بإحدى سفن النيل تمر من جانب قاربنا الصغير ، ولعدم خبرتنا تصورنا أن أفضل وسيلة لمقابلتها هو أن نكون فى موازاتها ، لكن ذلك جعل قاربنا يكاد ينقلب على جانبه بسبب الأمواج التى أحدثتها السفينة ، وكنا سنقلب جميعاً فى

النيل لا محالة ، ورأينا جميعا الموت بأعيننا ونزل أحد أفراد الشلة إلى قاع القارب وهو يقول : لا أريد أن أشاهد نفسي وأنا أموت .

كانت تجربة فظيعة جدا ولم ينقذنا من هذا الموت المحقق إلا على أحمد عيسى ، فقد كان أكبرنا سنا ، وكان قويا وحاضر الذهن فأخذ المجاديف وقال لي أن امسك بالدفة وكأنه يصدر إلى أمرا عسكريا ، وكنت في هذه اللحظة قد جفت دمائي فأطعت أمره بلا تفكير ، وظل يصدر إلى الأوامر حول ما يجب أن أفعله بالدفة إلى أن أصبح القارب في مواجهة موج السفينة ، وليس موازيا له وظللنا نجذب إلى أن وصلنا إلى الشاطئ ، وكأننا قد عدنا من الموت إلى شاطئ الحياة مرة أخرى .

○ ألم يتغير حبك للنيل بعد هذه التجربة ولو قليلا ؟

□ لأنني كنت أشعر أن سبب ما تعرضنا له من خطر كان يرجع لحططنا نحن ، وليس لغدر النيل أو قسوته ، فالنيل قوى لكنه خير ولا يغدر بأحد كالبحر .

لذلك فقد استمر عشقي للنيل رغم هذه التجربة التي لم أنسها طوال حياتي ، وأذكر مثلا بعد ذلك بسنوات طويلة أن صديقي الكاتب الساخر محمد عفيفي كان يستأجر عوامة في النيل يمضي فيها وقت الكتابة ، وحين تعرفت به في أواخر الأربعينات دعاني لزيارته فيها ، ولا تتخيل جمال الجلوس في العوامة الطافية فوق النيل ، والتي تحيطها المياه الرقراقة ، وكثيرا ما كنا لمجلس على سطح العوامة مع بعض الأصدقاء العاملين مع محمد عفيفي في جريدته الفكاهية ، ونتحدث في أشياء كثيرة حتى ساعات متأخرة من الليل .

○ كأنك تصف يا أستاذ لحبيب روايتك الشهيرة «ثرثرة فوق النيل»

التي تقع أحداثها في عوامة في النيل .

□ لقد استوحيت هذا الموقف ليس فقط من عوامة محمد

عفيفي ، ولكن أيضا من عوامتي الشخصية ، فقد سكنت عوامة في بداية زواجي تحقيقا لأمنية تكونت لدى خلال ترددي على عوامة محمد عفيفي ، فقد أحضرت زوجتي من الإسكندرية بعد زواجنا عام ١٩٥٤ ، وسكنا عوامة في شارع النيل بالعجوزة ، وأمضيت في هذه العوامة أياما اعتبرها من أسعد أيام حياتي .

ولا أنسي أبدا حين كنت أفتح الشباك في الصباح فلا أرى السيارات ولا الشارع الأسفلتي ، وإنما المياه المتدفقة لهذا النهر الخالد ، ولا أستشيق أنفاس الجيران ولا عادم السيارات ، وإنما رائحة المياه الطازجة المليئة بالطمي ، وكان أمامنا على الجانب الآخر أشجار الكازوارينا الباسقة ، وعوامات الجيران الذين كان من بينهم على ماهر (باشا) ، رئيس الوزراء الأسبق ، والمطربة المعروفة منيرة المهدية .

وقد كان من الممكن أن أمضي حياتي كلها في تلك العوامة ، لكنني عدت في يوم لأجد زوجتي تمسك بابتنا الصغيرة أم كلثوم وتقول لي : « لن أمضي يوما آخر في هذه العوامة » ! ، واتضح أن أحد جيراننا كانت له ابنة في سن ابنتنا ، وفي ذلك اليوم سقطت في النيل وهي تخطو من الشاطئ إلى العوامة ولقيت حتفها .

وهكذا تركنا العوامة وانتقلنا إلى شقة في إحدى العمارات الجديدة المواجهة للنيل في نفس الشارع .

○ لقد ارتبط النيل في الكثير من رواياتك بالموت ، ففي « بداية ونهاية » تنتهي الأحداث بإلقاء نفيسة لنفسها في النيل ، حيث تصف كيف ابتلعها النيل في جوفه وفقدت حياتها مثل ابنة جيرانك بالعوامة . وحتى في « ثرثرة فوق النيل » والتي كانت تعكس فترة القلق والاضطراب وعدم الاستقرار التي عاشتها مصر بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، فإن اختيارك للعوامة الطافية فوق مياه غير ثابتة قد أعطي الإحساس بعدم الاستقرار السياسي في ذلك الوقت .



□ لكن خواطر ساكن العوامة في « ثرثرة » كانت مليئة أيضا بعشق النيل ، فالنيل ليس شيئا واحدا وإنما هو متعدد المعاني ومتعدد الوجوه ، وقد كان النيل شديد التدفق قبل بناء السد العالي الذي أوقف الفيضان ، وكان له أشكال وألوان متعددة ، وفي بعض الأحيان كان ينخفض فترى الشاطئ كله حدائق خضراء ، ثم ترتفع المياه ويتغير لونها فيصبح بنيا داكنا بلون التربة ، أو أسود بلون الطمي القادم من قلب القارة السوداء . وفي بعض الأحيان كانت ترتفع المياه حتى تصل إلى مستوى الشارع فكنا نشعر أننا نسكن في فيلا وليس في عوامة ، كان النيل في ذلك الوقت كأننا حيا يجدد نفسه طوال الوقت وكانت رائحته منعشة للنفس ، كما أننا لم نكن قد امتهناه كما نفعل الآن بإلقاء مخلفات المصانع في مياهه الراكدة ، وبالبناء على جانبه بالأسمت القبيح حتى كدنا نخنق هذا النهر الخالد ، شريان الحياة في مصر الذي قدسه أجدادنا .

○ هل كان النيل في ذلك الوقت يختلف من مكان إلى آخر ؟

□ بالطبع ، ففي رأس البر مثلا كان جمال النيل في التقائه بالبحر ، وقد كانت هناك بقعة كنت أعتبرها من أجمل بقاع الدنيا ، هي أرض خضراء يلتقي عندها النيل مع البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تنصب فيها السراقات ويجلس الناس يتفرجون على هذا الالتقاء الرائع بين النهر والبحر .

وفي رأس البر فإن البحر للاستحمام ، أما النيل فقد كان للفسحة والشارع الرئيسي للتمشية كان يقع على النيل وليس على البحر .

○ أعرف أنك كنت دائما تهوى التمشية على النيل حتى في القاهرة .

□ أوه . . لا بد أنني مشيت في حياتي آلاف الأميال على النيل ، فقد كنت أمشي في الصباح الباكر وفي المساء ، لكنني كنت أجلس أيضا على النيل حتى عرفت النيل خير معرفة .

ثم يصمت لحظات يستعيد فيها ذكرياته ثم يقول :

□ إننى طوال فترة الصيف لم أكن أكتب بسبب حساسية كانت تصيب عيني ، وتجعل الكتابة لمدة ساعات متصلة عملية متعبة ، لذلك ففي أحيان كثيرة كنت في المساء أتمشي في شارع النيل بالجيزة حيث يقع سراى الرئيس الراحل أنور السادات ، وهناك كنت أتوغل حتى أصل إلى حافة الماء ، وكنت أحضر معي وسادة جلدية أجلس عليها حتى لا تبتل ملابسي ، وكنت أجلس أنظر إلى النيل ساعات متواصلة أنتظر ضوء القمر حتى منتصف الليل مثلا .

○ وحك ؟

□ أنا والنيل . . لقد ذكرتني بما كنت قد نسيت . . إن النيل كان معشوقى فعلا .

○ كنت تجلس بالفعل حتى منتصف الليل ؟

□ فى بعض الأحيان حين يكون اليوم التالي إجازة لا عمل فيه ، كنت أجلس حتى الفجر ، ثم أذهب سيرا على القدمين إلى قهوة الفيشاوى بالحي القديم أفطر هناك وأدخن الشيشة .

○ ماذا كان يدور برأسك وأنت جالس مع النيل ؟

□ كنت أفكر في كل شيء فتهي لحظات صفاء وتأمل ، لكن معظم أفكارى كانت تدور حول أعمالى الأدبية التى كنت استعد لإنجازها عندما يحين موسم العمل في الخريف ، لقد كان النيل يلهمنى الكثير منها .

○ هل كنت تدون ما كان يأتيك من أفكار في هذه الجلسات ؟

□ لم يكن معي لا ورق ولا قلم ، ولا كان الصيف وقت الكتابة أو التدوين ، لقد كانت جلساتي هذه مخصصة فقط للتأمل والتفكير .

والحقيقة أنني لم أكن العاشق الوحيد للنيل ، فقد كان الكثير من الناس في الصيف يجلسون على العشب الأخضر على شاطئ

النيل يغنون ويتسامرون ، وكان الجزء الذى يشغله الآن كازينو قصر النيل لا تكاد ترى فيه موقع قدم من كثرة الناس .

أما أنا فكنت أجلس في مكان خلوى ، وحين تعرفت على «الحرافيش» بعد ذلك كنت في بعض الأحيان آخذهم معي إلى هذه المنطقة ، وكانت بها دائرة كالميدان كنا نجلس فيها نتحدث عن إحباطاتنا ، فقد كنا شبابا لا نجد فرصة لنشر أعمالنا الأدبية والفكرية . ومن كثرة حديث التشاؤم بيننا أسمينا هذا المكان «الدائرة المشثومة» .

كان ذلك قبل أن يلما محمد عفيفى مطر وتوفيق صالح في منزليهما ، فقد كانت سهراتنا في ذلك الوقت سهرات شوارعى !

○ من الغريب أن ارتباطك بالنيل استمر طوال هذه السنوات وفي مختلف الظروف التى مرت عليك ، حتى إن حادثة الاعتداء عليك في أكتوبر ١٩٩٤ ، كانت أمام النيل والمستشفى الذى نقلت إليه كان أيضا على شاطئ النيل ، وأذكر في زيارتي لك أنك حين بدأت تتماثل للشفاء ، تركت عنبر العناية المركزة إلى غرفة على النيل ، وكنت تجلس في بعض الأحيان مع أسرتك أو أصدقائك في الشرفة على النيل .

□ لقد قال هيرودوت إن مصر هبة النيل ولولا النيل ما كانت حياتنا ذاتها ، لكني لا أكاد أرى النيل الآن من كثرة المباني التى رصت عليه ، والكازينوهات التى أقيمت على شواطئه ، وكم أتوق الآن إلى بقعة خضراء صغيرة يستطيع الإنسان أن يمشي فيها دون أن يعترض رؤيته للنيل شيء !

لقد كنا طوال حياتنا نتغنى بالنيل فقال عبد الوهاب : « إمتى الزمان يسمح يا جميل وأسهر معاك على شط النيل » وغنى لأحمد شوقي « النيل نجاشي » وغنت أم كلثوم : أنا وحببي يا نيل نلنا أمانينا ، مطرح ما يرسى الهوا ترسي مراسينا » وأيضا « ما لنا لا أحنا وأنت في الحلاوة مثيل يا نيل » .

لكن لا أحد الآن يتغنى بالنيل لأن لا أحد يعرفه . . فلا أحد يراه من كثرة ، ما أقيم حوله من مبان .

الشخصية المصرية



ويتحدث الأستاذ عن خصائص الشخصية المصرية فيقول :

□ إن أكثر ما يميز الشخصية المصرية هو قدرة المصرى على الصبر على المصائب أياً كان نوعها اجتماعية أو سياسية ، وهو يتفوق في ذلك على شعوب أخرى كثيرة ، فهو يعتبر أن المحن التى تمر به هى « مكتوب » عليه ، لكن مع ذلك فإن التاريخ المصرى لا يخلو من ثورات وتمردات لا تعد ولا تحصى .

وهذا فى رأيي يرجع للطبيعة فى هذه المنطقة من العالم ولجغرافية المكان وللتاريخ أيضا ، فنحن نسكن واديا منبسطة ليست فيه جبال مثلا ، وتاريخ المصرى مرتبط بالزراعة التى اكتشفها قبل غيره ، والزراعة هى أم الصبر فكل شئ له أوان ولا زرع ينمو قبل موسمه فما عليك إلا أن تزرع البذرة وتظل ترعاها متذرعا بالصبر إلى أن تؤتى ثمارها حين يحين موعدها المحدد . وهذا يختلف تماما عن المجتمع الصناعى الذى يعود جزء من نجاح أى عمل فيه إلى اختصار فترة الإنتاج بحيث يأتى الربح بأسرع ما يمكن ، وكلما أسرعت بالمكسب كسبت أكثر ، أما فى الزراعة فكل شئ بأوان .

والمصرى أيضا متدين جدا ، وربما كان ذلك لأنه فى فترات انتظاره الطويلة والتى فرضت عليه ألوانا من الصبر وجد أن عليه أن يفكر فى الكون وفى الخليقة وفيما بعد الموت وهذا هو باعث التدين ، لأنه وجد فى الدين الإجابة على جميع أسئلته : لماذا أحياء؟ ولماذا أموت ؟ وإلى أين أنا ذاهب ؟

وليس هناك فى جميع الأديان القديمة دين أعطى أملا لأتباعه مثلما أعطى دين المصرى القديم الذى قال للمصرى : كل ما يحلو

لك في هذه الدنيا من طعام وشراب وأبناء وبنات وموسيقى وأشعار
بإمكانك أن تأخذه معك إلى الحياة الأخرى .

كما أن المصري إنسان وفي إلى أبعد درجة ، وتاريخه مليء بما
يشهد على ذلك ولناخذ قصة قلاوون الذى خلعه أحد أعدائه من
الحكم ، لكن لأنه كان يظهر بعض الميل نحو الشعب ، فإن الشعب
رفض أن يتخلى عنه فخرج بطارد من خلعه ، وكان هذا رجلا غنيا
فظل يقذف لمن يطاردونه بالمال فكان هؤلاء الحفاة الجياع يتركون
المال ويواصلون مطاردته إلى أن فرغ ماله وتمكنوا من القبض عليه ،
وأعادوا قلاوون إلى الحكم .

ثم يضيف :

□ إنني أجد أن روح الفكاهة من الخصائص الأساسية للشخصية
المصرية ، فلا شك أن الإنسان الذى لديه صبر الانتظار فإن روحه
تكون سمحه تميل للدعابة . وقد وجد الكاريكاتير على جدران
بعض المقابر القديمة ، ليؤكد لنا أن روح الدعابة التى يتمتع بها
المصري الآن تعود إلى أجداده القدامي .

ولقد استعان المصري دائما على الملمات التى تقابله بالفكاهة
والدعابة . ففي عصور القهر تجدد النكتة السياسية منتشرة بشكل غير
عادى ، وهي وسيلة سلمية لمقاومة ظلم الحاكم .

كما أن الفكاهة تساعد المصري أيضا على تحمل بعض متاعبه
الشخصية مثل محدودية الرزق وباقى مشاق الحياة اليومية .

ثم يسألنى الأستاذ : وماذا ترى أنت من خصائص فى الشخصية
المصرية ؟

○ فأقول إنني أجد إلى جانب روح الدعابة التى تحدث عنها هناك
مسحة حزن لاتفارق المصري أبدا ، هو حزن لا يشابه أي حزن آخر ، إنه
نتاج قرون من الأسى مزوج بالحنين والوجد ، ويكاد يقترب من أن يكون
حزنا فنيا . الحزن الذى تعبر عنه كلمه الشجن التى لا أجد لها ترجمة فى



أى من اللغات الأخرى ، وربما كان أقرب معنى لهذا النوع من الحزن هو ما يطلق عليه البرتغاليون Soledad ولست أدري من أين جاءهم هذا الشعور الشرقي المصري القديم ؟ هل عن طريق العرب فى الأندلس ؟ لست أعرف فهو غير معروف فى الثقافات الغربية ، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث التفاؤل الأمريكى التقليدى وثقافة الابتسام Smile التي تميل إلى السداجة .

ثم إن هناك خاصية أخرى قد تكون فى كثير من الشعوب الأخرى ، لكنها ملحوظة بشكل خاص فى المصريين منذ عهد الفراعنة وحتى الآن تلك هى العزوف الطبيعى عن العنف والكراهية الشديدة لإراقة الدماء .

إن الحضارة المصرية القديمة من الحضارات القليلة التى لم تعرف القرايين الآدمية ، بينما كانت بعض الحضارات الأخرى تشق الصدر لكى تتمتع بمشهد القلب الآدمي وهو ينبض ، ولقد عشنا سنوات نتصور أن عروس النيل التى كان يلقي بها فى الماء كقربان لكى يجيء الفيضان غزيرا كانت عروسا آدمية إلى أن ثبت أنها لم تكن إلا دمية فالحياة الإنسانية كانت ومازالت مقدسة عند المصري .

□ هذا صحيح ، وتلك الخاصية لم تترك المصري إلى وقتنا هذا حتى إن ثوراته كانت فى معظمها ثورات بيضاء لم ترق فيها الدماء .

○ فأقول : لقد كان أحد أسباب الشعبية المبكرة لثورة يوليو عام ١٩٥٢ يعود ليس فقط الى تطلع الشعب إلى التغيير ، ولكن أيضا لأنها لم تقم المشائق للنظام القديم الذى يسعى الشعب للخلاص منه ، بل إن رأس هذا النظام ورمز الفساد فيه وهو الملك فاروق قد طلب إليه فقط أن يتنازل عن العرش ويغادر البلاد ، وقد كان فى وداعه أثناء صعوده إلى يخته الخاص الذى أقله إلى منفاه الأخير بإيطاليا نفس الضباط الذين خلعه ليقدموا له التحية التى يستحقها ملك مصر .

ثم أقول : إنى أجد أن جميع خصائص الشخصية المصرية التى تحدثنا عنها موجودة بشكل واضح فى الشخصيات التى رسمتها فى



روايات مثل الصبر على الملمات التى تتسم بها الكثير من شخصيات ثلاثيتك الشهيرة ، وكذلك روح الدعابة التى لاتكاد تخلو منها أي من رواياتك بالإضافة للسماحة وكرهية العنف رغم أن هناك الجريمة فى بعض رواياتك مثل اللص والكلاب ، لكنها دائما حالة استثنائية دخيلة على الطبيعة ، فهل كنت تعني ذلك وأنت تكتب ، أم إن ذلك جاء بشكل عفوى ؟

فيقول نجيب محفوظ فى بساطة :

□ إنني لست «سوسيولوج» أو عالم اجتماع فلا أقول هذه صفات المصري وهذه حياته ، أى أنني لا أشرع فى محاولة لتصوير الشخصية المصرية بل أتعامل معها تلقائيا .

○ لكن أحدا لم يجسد الشخصيات المصرية مثلما فعلت أنت فى رواياتك .

□ إن تلك هى الشخصيات التى أعرفها ، هى التى عايشتها فى الأحياء القديمة على مدى أكثر من ثمانين عاما الآن ، هى شخصيات تحمل فى وجدانها كل التراث القديم الذى كنا نتحدث عنه بخيره وبشره ، وأنا لا أعرف شخصيات غيرها فمن أين آتى بشخصيات أخرى ؟



الإرهاب



وأقول لنجيب محفوظ :

○ رغم كل ما قلناه عن عزوف المصري عن العنف وكرهيته الشديدة لإراقة الدماء ، فإننا نمر بمرحلة نشهد فيها قدراً كبيراً من العنف والإرهاب المرتبط بالدين .

فيقول :

□ إن الأديان نزلت من أجل المحبة والتسامح ، فإذا تطرقت إلى العنف والإرهاب فينبغي البحث في الظروف الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى ذلك ، ففيمما أعلم لا أعلم دينا وسيلته العنف والإرهاب ، وليس هناك دين يمسك سكيناً يضرب بها الناس ليحملهم علي اعتناقه ، والإسلام في مقدمة تلك الأديان ألم يقل تعالي : لا إكراه في الدين ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

○ لكن جميع الأديان شهدت مع ذلك مراحل عنف في تاريخها ، وما يحدث الآن باسم الإسلام والذي وصل إلى حد القتل وحل دماء الأبرياء ، وهو أمر خطير حيث وصل التفتيش في ضمائر الناس واستصدار الأحكام القضائية بتكفيرهم . . إن ذلك ليس ببعيد عن محاكم التفتيش الكاثوليكية مثلاً .

فيقول في هدوء :

□ إذا نظرنا للوضع القائم الآن في العالم الإسلامي نجد أن هناك شعوراً عاماً بخيبة الأمل المتزامنة مع أزمة اقتصادية طاحنة ، وغياب للحرية السياسية فبعد معارك التحرر حصلت الكثير من دول العالم الثالث الإسلامية على استقلالها ، وبدأت تجرب مختلف طرق التنمية وعرفنا في العالم العربي القومية العربية والتنمية الاشتراكية ،

لكن بانتهاء عقد الستينات بدأ كل ذلك يهوى أمام أعيننا ، فالقومية العربية ، تلك الايديولوجية العلمانية التي وحدث بين المسلم والمسيحي في العالم العربي انهزمت في حرب يونيو ١٩٦٧ خلال ست ساعات فقط ، و الفكر الاشتراكي كله بدأ يتداعى فى السبعينات والثمانينات حتى انهيار تماما فإلى أين نتجه؟ من الطبيعي أنه في ظروف الأزمة يعود الإنسان إلى جذوره القديمة باحثا عن مأوى . . يعود إلى الحقيقة المطلقة التي لا يمكن أن تتهاوى مع الزمن مثل كافة الأفكار العلمانية الأخرى التي تهافت .

إن هذا كله في رأيي تطور صحى ، أما الجانب المرضى فيه فهو اللجوء إلى العنف الذى وصل إلى حد الإرهاب ، لكن علينا أن نتذكر أن هذا الاتجاه هو فى الأساس رد فعل لأوضاع متردية ، وبقدر ترويضها بقدر العنف الذى تتخلده ردة الفعل .

ويواصل نجيب محفوظ بلا مقاطعة مني :

□ إن الشاب الذى يكمل تعليمه ويخرج إلى الحياة متطلعا وفي النهاية يجد أنه لا مكان له فى هذه الحياة التي كان يتطلع اليها ، فلا عمل له وسط أزمة البطالة القائمة ولا مسكن وسط أزمة الإسكان القائمة ، وبالتالي فلا عمل ولا زواج ولا استقرار ، فإلى أين يتجه؟ وماذا يفعل غير أن يحطم هذا المجتمع الذى يرفضه؟ أما إذا كان ذلك ممكنا أن يتم تحت دعوى دينية سامية فإن المجذابة إلى التيار يكون أقوى وأشد .

فأسأل :

○ بعيدا عن تلك الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية ، أليس هناك أيضا غياب الحلم في حياة اليوم؟ لقد كانت القومية العربية حلما نشأ عليه جيل بأكمله كان يتطلع إلى تحقيق الوحدة العربية بين كافة الشعوب العربية ، والاشتراكية كانت أيضا حلما يعد بالكفاية والعمل والرخاء للجميع ، فأين حلم اليوم بعد أن تحطمت أحلام الأمس؟ إننى حين أنظر حولي لا أجد أحدا يملك حلما يقدمه للناس إلا هذا الاتجاه الدينى

المتطرف ، ومع كل اختلاف في المبدئي مع هذا الاتجاه إلا أن الإنسان لا يجازف بحياته إلا في سبيل تحقيق حلم .

□ هذا صحيح ، لكن الحلم تحول على أيديهم إلى كابوس فعلي يؤرقنا جميعا ، ليس فقط في مصر ولكن أيضا في الجزائر وفي السودان وفي إيران ، فكيف لنا أن نعيش مع هذا الكابوس ؟

○ هل ظاهرة الإرهاب تزعزع معرفتك الراسخة بهذا البلد أو ثقتك في مستقبله ؟

□ لا لأن الطبيعة التي عاش بها هذا الشعب سبعة آلاف سنة سيكون لها الغلبة في النهاية ، فهذه الظاهرة الدخيلة هي نتيجة لظروف طارئة ، وستزول بزوال الظروف التي أوجدتها .

○ هل تسمح لي أن أسألك بشكل مباشر عن واقعة محاولة الاغتيال التي تعرضت لها في أكتوبر ١٩٩٤ ، فأقول لك كيف أثرت تلك الواقعة على اقتناعك السابقة ؟

□ لم تؤثر بشيء ، فإني أجد أن ثقتي بهذا الشعب مازالت كما كانت ، ونظرتي للإرهاب ورفضي له ما زالا أيضا كما كانا .

○ لكنني أجد أن حياتك الآن قد أصبحت أكثر حرصا مما كانت قبل الواقعة حيث كنت تفتح بابك لكل من يريد الدخول لتحيتك ، أو لالتقاط الصور التذكارية معك ، كما كانت ندوتك الأسبوعية تعقد في مكان عام ، وكانت مفتوحة لكل من يريد حضورها ولقد تغير كل ذلك الآن .

□ تلك ضرورات إجرائية فرضت على ولم أخترها وهو ما يجب أن أتحملة ، لكنها لا تتصل من قريب أو بعيد باقتناعاتي الأساسية بهذا البلد ، ولم تغير معرفتي بشعبه .

ولا أجد كلاما أرد به على الأستاذ فأصمت ، وتعود بي الذاكرة إلى الوراء لأتذكر يوم حاول أحد الشباب اغتيال كاتب مصر العظيم .

وأذكر كيف هرعت إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة لأطمئن عليه ، وتعود إلى تلك الساعات الطويلة الرهيبة التي قضيتها في تلك الليلة من



شهر أكتوبر عام ١٩٩٤ ، وسط جموع من الكتاب والمثقفين والصحفيين الذين توافدوا على المستشفى يتلمسون أخبار الكاتب الكبير من الأطباء أو المرضى .

وتذكرت اليوم التالي حين كان الأستاذ لا يزال بعنبر العناية المركزة ، وكنت أجلس بقاعة الانتظار الكبيرة بالمستشفى مع السيدة عطيه الله زوجته وكرميته أم كلثوم وفاطمة ، وكائنا تقصان على كيف أنهما أخذتا إجازة من عملهما ليظلا إلى جانب والدهما بالمستشفى ، رغم أنه لا يسمح لهما برؤيته إلا لمدة ثلاث دقائق فقط في اليوم .

وفجأة أقبل اللواء وجيه عيسى نائب مدير الإدارة العامة للخدمات الطبية ، فاتجهت إليه أسأله عن آخر أخبار الأستاذ ففاجأني بقوله لي : فلتعرف منه الأخبار بنفسك لأنه يطلبك الآن .

فانطلقت صوب غرفة العناية المركزة لكنه استوقفني قائلاً : انتظر إننا لا نسمع بالزيارة لكن حين أخبرنا الأستاذ أنك في الخارج طلب أن يراك ، لذلك تمنني ألا تزيد الزيارة على ٣ دقائق بالعدد ولا سأضطر للتدخل .

ودخلت لأجد الأستاذ الكبير يقول :

□ أهلا وسهلا . . أهلا وسهلا . . وقبض بشدة على يدي وقبلني فاغرورقت عيناى ورأيت على وجهه ابتسامته البشوش التي ألفناها ، فقلت له : إنني لا أصدق ما يقال يا أستاذ لجيب ، فها أنت سليم معافي كما عرفتك دائما ، فقال في اقتضاب : الحمد لله . وكررها ثانية : الحمد لله .

○ ثم روى أديب مصر الكبير لأول مرة تفاصيل ما حدث له وقت الحادث ، فقال :

□ إنني لم أر الشاب الذي اعتدى على . . لم أر وجهه ، الذي حدث هو أنني وأنا أهم بركوب السيارة لأذهب لموعدي مع أصدقائي في الندوة الأسبوعية ، وجدت شخصا يقفز بعيدا ،

وكنت قد شعرت قبلها بثوان معدودة وكأن وحشا قد أنشب أظافره في عنقي ، وقد دهشت ولم أدرك بالضبط ما حدث .
وأضاف الأستاذ :

□ لكنني حين شاهدت هذا الشخص يرمي خنجرًا كان في يده فهمت على الفور ما حدث ، وعرفت أن هذا الخنجر هو الذى كان في عنقي ، وبدأت أشعر بالدماء تنزف من عنقي فوضعت يدي على رقبتي لأوقف النزيف ، بينما انطلق صديقي الدكتور هاشم فتحى بالسيارة إلى مستشفى الشرطة المقابل لبيتى .
وأسأل :

○ وماذا كان آخر شيء تتذكره قبل ذلك ؟
فيقول :

□ عند وصولنا السلم الذى توقفت السيارة عنده ، بعض الناس الذين لا أعرف من هم أصروا على حملى وأصررت أنا على السير ، ولا أكاد أذكر ما حدث بعد ذلك .
وابتعدت بالحديث عن التفاصيل الدامية للحادث لأسأل
الأستاذ عن مشاعره تجاه ما حدث ؟
فقال على الفور :

□ إن شعورى مزدوج ، فمن ناحية أشعر بالأسف لتكرار جرائم الرأى ، فهناك الشيخ الذهبى والأستاذ مكرم محمد أحمد والسيد فرج فودة ، وأقول إن هذا ليس الطريق للتعامل مع الرأى . . إنه لشيء مؤسف جدا ومسىء جدا لسمعة الإنسان في العالم أن يؤخذ أصحاب الرأى . . أصحاب القلم هكذا ظلما وبهتانا . ومن ناحية أخرى ، فإننى أشعر بالأسف أيضا من أن شابا من شبانا يكرس حياته للمطاردات والقتل ، فيطارده ويقتل بدلا من أن يكون فى خدمة الدين والعلم والوطن .

ثم يسرح الكاتب الكبير ببصره بعيدا مسترجعا مرة أخرى تفاصيل ما حدث ، ليقول :

□ إن الشاب الذى رأيتہ يجرى كان شابا يافعا فى ريعان العمر . . . كان من الممكن أن يكون بطلا رياضيا . . . أو عالما . . . أو واعظا دينيا . . . فلماذا اختار هذا السبيل ؟

ويسكت الكاتب الكبير قليلا فلا ألاحقه بالسؤال ، لكنه يعود فيقول :

□ لقد كنت متجها إلى لقاء أصدقائى فى الندوة الأسبوعية .

ثم يصمت فأوجه له سؤالى الأخير :

□ هل ستغير أسلوب حياتك بعد هذا الحادث يا أستاذ نجيب ؟
هل ستستطيع أن تذهب إلى ندوتك كل أسبوع وأن تسير وحدك فى الطريق بلا حراسة ؟

فينظر إلى فى وداعة وهدوء ويقول وكأنه يعبر عن أمنية غالية :

□ أرجو ألا أرغم على تغيير أي شيء فى أسلوب حياتى واختلاطى بالناس وتمشيتى بينهم فى الشارع .

ثم يضيف :

□ سيعز على كثيرا أن أرغم على الابتعاد عن الناس ، وأن تكون بينى وبينهم حواجز أمنية . إن حياتى كانت دائما وسط الناس ولم أر منهم إلا كل الحب ، فقد كانوا دائما يقبلون علىّ وأنا أسير فى الطريق ويصافحوننى ويطمئنون على لماذا تريدنى أن أحرم من كل ذلك ؟ لماذا أحرم من دفء المشاعر الإنسانية التى طالما أحاطنى بها الناس ؟

وتظهر على الفور فى عيني أديب مصر الكبير نظرة تصميم واضحة وهو يقول :

□ لا . . . لن أغير أسلوب حياتى . . . والله الذى حفظنى إذا أراد أن يحفظنى سيحفظنى ثم يضيف ضاحكا : إما إذا كان الله يريد الأخرى فنحن أيضا نحب أن نلقاه .

الله والمعرفـة



إن لجيب محفوظ هو بلا شك أحد رموز المعرفة والتنوير في حياة الشعوب العربية، وتعتبر المعرفة هي أحد المحاور الأساسية التي يقوم عليها أدبه، وهي تتخذ في أعماله سمة الأداة الرئيسية للتقدم والارتقاء، وكذلك لسعادة الإنسانية، فهي العالم الروائي لنجيب محفوظ

من يصل إلى المعرفة هو الذي يملك أسباب القوة ويتحكم في مصيره، وإن كان في كثير من الأحيان يجد نفسه في حالة صراع مع القديم، أما من لا يملك المعرفة فهو الذي تتخطاه الأحداث فيبقى وحيدا على جانب الطريق سرعان ما يندثر.

وإذا كان لنا أن نعتبر شخصية كمال عبد الجواد في ثلاثية محفوظ الشهيرة تعبيرا عن المؤلف نفسه كما يعتقد بعض النقاد، فإن كمال يؤمن بالعلم والمعرفة ويدافع عن أحدث النظريات العلمية أمام من لا يعرفون، ومنها نظرية الارتقاء لداروين، وهي نظرية نجد أن الثلاثية كلها قد قامت عليها حيث يتطور المجتمع ويتغير من جيل إلى جيل عبر الروايات الثلاث بين القصرين وقصر الشوق والسكرية.

وإذا كانت الثلاثية قد ظهرت في أولى مراحل لجيب محفوظ الواقعية، فإنه لم يتخل في مراحل الأخيرة عن إيمانه الراسخ بأن التقدم والارتقاء هما سنة الحياة. ففي رواية الخرافيش يوجه لنا الكاتب سؤالاً استنكارياً واضحاً حيث يقول: لو كان لشيء أن يبقى على حال فلم تتغير الفصول؟!

وربما كانت رواية محفوظ الشهيرة أولاد حارتنا التي اتخذت السلطة الدينية موقفاً معادياً لها هي أكثر روايات الكاتب الكبير إصراراً على أهمية المعرفة فأحد أبطالها الرئيسين هو عرفة (المشتق في اللغة العربية من كلمة المعرفة) Maarefa الذي يأتي لأبناء الحارة بأعمال وأفعال

مبهرة، كأعمال السحرة وهو يبقى في النهاية بعد أن تموت بقية الأبطال .

على أن المعرفة عند نجيب محفوظ رغم أهميتها فهي مجرد نقطة ماء في محيط اللا معرفة المتراعى الأطراف ، وهي شعاع ضوء وسط ظلمات الكون اللا نهائية .

يقول الأستاذ :

□ إذا نظر الإنسان إلى ما في السموات والأرض ونظر إلى نفسه سيجد أن نظير كل موقع معرفة هناك محيط من اللا معرفة ، فالمعرفة بطبيعتها غير كاملة خاصة في العلم ، فقد يعرف العلماء قوانين طبيعية كثيرة دون أن يعرفوا ماهية الطبيعة ، أو لماذا وجدت ؟ ثم يضيف محفوظ الذي كانت دراسته الجامعية في مجال الفلسفة :

□ على أن هناك مناطق من المعرفة يعتقد فيها أن المعرفة كاملة وأنه لا مجال هناك لما لا يعرف المرء ، أى أن صاحب المعرفة في هذا المجال قد أحاط بالأشياء من جميع جوانبها فعرف ماهيتها ، وكيف وجدت ، والحكمة من وجودها . . تلك هي منطقة العقائد ، فصاحب العقيدة هو على قناعة راسخة بأنه وصل إلى كنه الأشياء جميعا .

○ ألا يمكن في مجال العقيدة إذا تبحر الإنسان فيها كثيرا أن يكتشف أن معرفته بها قليلة وأنه هناك مجال كبير من اللامعرفة ما زال بعيد المنال ؟ يمكن أن يحدث هذا إذا فكر الإنسان في العقيدة بعقله ، فقد يشعر الإنسان أن الإحاطة الكاملة بها أكبر منه ، وقد يساوره الشك وتكون تلك تجربة حياتية وجودية ليست بسيطة .

لكن في أحيان كثيرة تقتزن العقيدة بالروح والقلب أكثر مما تقتزن بالعقل . فالصوفيون مثلا لا يفكرون في عقيدتهم على هذا النحو وإنما هم يعيشون تجربتها ، والتجربة عندهم طبقات ،

والمصوفى يمضى بحياته من طبقة الى طبقة فهو يتصوف ثم يزهد ثم يدخل طبقة الفقر ثم الرضا ، وهكذا إلى أن يصل إلى ما يعرف بالتجلى .

على أن المعرفة وعدم المعرفة ككل الأضداد متصلتان ببعضهما البعض ، فالتجربة الصوفية قد تبدأ أصلا بالشك الذى هو درجة من درجات عدم المعرفة ، والمثال على ذلك هو الإمام الغزالي المفكر الإسلامى المعروف الذى سعى عدو الفلسفة ، وإن كان هو فى رأيي خير من شرحها ، ومؤلفاته تقترب من الـ ٢٠٠ كتاب طاف فيها بجميع مجالات المعرفة ، وانتهى الأمر إلى الشك الفلسفي الذى أسلمه إلى التصوف فوجد فيه اليقين ، لكنه يقول إن الوصول إلى المعرفة الكاملة لا يكون بالتعلم ، وإنما بما أسماه « الذوق » أى أن « الذوق » أى أن يذوق المرء الحقيقة لكي يعرفها ، فهناك فرق بين أن تعرف ما هى الصحة وشروطها وبين أن تكون صحيحا ، والمعرفة الحقة عند الصوفية هي أن تعيش الحقيقة لا أن تعقلها .

○ هل يفضي عدم المعرفة دائما إلى المعرفة ؟

□ ليس بالضرورة فعدم المعرفة في بعض الأحيان قد يكون هو البداية وهو المنتهى كما في العلم حيث إن العالم وهو يبحث الظاهرة لا يجب أن يسأل عن الهدف من تلك الظاهرة ، لأن البحث عن الهدف يخرج من نطاق العلم ليدخل مجال الفلسفة فالعالم يبحث عن القوانين والنظريات التى تحكم الظاهرة وتسيرها بحيث يستطيع القانون أن يعيد التجربة ، فبمعرفة قانون الجاذبية تستطيع أن تطير فى الهواء أو تغوص فى الماء ، ولكن العلم لا يستطيع أن يسأل ما هي الجاذبية ؟ ولا لماذا وجدت ؟

○ أليس فى الفلسفة قدر من المعرفة الكاملة من حيث إنها كانت دائما

تبحث عن قانون القوانين ؟

□ كان ذلك ممكنا أيام أرسطو حين كانت العلوم بسيطة نسبيا ، وكان الفيلسوف يحيط بها جميعا وهو مازال في شبابه ، وبعد

ذلك يلاحظ ما يربط بين مختلف هذه العلوم فيوصل إلى الحقيقة المطلقة ويكون على أساسها فلسفته ، وقد أصبح ذلك الآن مستحيلا ، لذلك فإن فكرة النظام الفلسفي Systeme Phi-Iosophique قد اختفت وأصبحت الفلسفة مقصورة على التفكير في فرع واحد من العلوم ، وربما آخر تصور فلسفي شامل للكون والناس هو تصور هيجل ، فبعده انفجر العلم وقال للفلسفة : «مكانك» !

○ وجدنا في رواياتك في مرحلة ما بعد حرب ١٩٦٧ أن بعض المعرفة السابقة قد انقلبت إلى عدم معرفة ، وقد بدا ذلك واضحا في رواية ثرثرة فوق النيل على سبيل المثال .

□ كانت تلك مرحلة أصبنا فيها على المستوى السياسي بيأس شديد ، وبخية أمل لم تكن متوقعة بأي حال من الأحوال ، فقد كنا معتمدين على قوتنا ، وعلى قوميتنا وعلى مذهب اشتراكي جعلنا على صداقة وثيقة بثاني أكبر أم العالم ، وكان ذلك يشكل منظومة معرفية اهتزت بشدة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وظهر أن تلك الاقتناعات التي عشنا عليها سنوات لم تنفعنا حين وضعت في الاختبار ، وهكذا تغيرت معرفتنا بهذه الاقتناعات الثلاث حيث اتضح أن القوة التي كنا نتصور وجودها باعتبارنا أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط هي غير موجودة ، وإيماننا بالقومية العربية لم تنجدنا في محنتنا . أما علاقتنا بالاتحاد السوفيتي فقد اكتشفنا أنه هو أيضا يهاب مثلنا .

لقد كانت تلك المرحلة مرحلة مراجعة لمعارفنا الأساسية في ظل الحقائق التي تبدت أمامنا واضحة وضوحا مخيفا ، وقد بدأ يحل عندي بعد ذلك محل القومية بمفهومها الرومانسي التابع للقرن التاسع عشر مفهوم آخر حديث أكثر عملية وبراجماتية يعتمد على تحقيق المصالح المشتركة بين الأقطار العربية متخذة من رباط اللغة المشتركة والثقافة والدين وسيلة فعالة لتحقيق ذلك .

والقوة التي تهاوت أو هامها أمامنا جعلتني أؤمن أكثر بالسلام كوسيلة أكيدة لتحقيق التقدم والرخاء ، أما الاشتراكية فقد أصبحت أؤمن منذ ذلك الوقت وقبل أن يسقط الاتحاد السوفيتي بأن أي طريق يؤدي إلى العادلة الاجتماعية هو طريق مقبول حتى وإن جاء من الرأسماليين ، ففي الكثير من الدول الرأسمالية يوجد من الخدمات العامة ما عجزت عن تقديمه بعض النظم الاشتراكية .

إن ما سقط حقيقة في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية منذ عهد قريب سقط عندنا قبل ذلك بعقدين من الزمان ، وهو لم يكن مجرد سقوط إحدى النظريات السياسية لكنه كان في الحقيقة سقوطاً لـ «الدوجما» فليس هناك اشتراكية جيدة ورأسمالية سيئة لكن هناك أهدافاً سامية لا اختلاف عليها وكل من استطاع تحقيقها فهو جيد .

لكن ما إن وصلنا إلى تلك المعرفة حتى تبدى أمامنا مرة أخرى عدم المعرفة ، وذلك في المعطيات الجديدة للعصر الجديد ، وأصبح علينا مثلاً أن نعرف ما هو النظام العالمي الجديد ؟ وما هي اتفاقية «الجات» ؟ وأين سيكون موقعنا منها ؟ وهل ستفيدنا أم ستضرنا وهل نملك حرية الحركة إزاء هذه المعطيات الجديدة أم إنها مفروضة علينا شئنا أم أبينا .

وعلى مستوى السلام فقد انجھنا إليه بشكل واضح ، وقام الرئيس السادات بمبادرته المعروفة عام ١٩٧٧ ، ولكن هل إسرائيل ستستطيع الوصول إلى مرحلة التعايش مع هذا السلام هي الأخرى أم إن ما تسعى إليه هو مجرد نوع من السيادة في المنطقة ؟ أي هل ستنتجح إسرائيل في أن تصبح دولة شرق أوسطية تنتمي لمحيطها الجغرافي أم إنها ستظل أشبه بالقلعة المنعزلة كالقلاع الصليبية التي قامت في نفس المكان في العصور الغابرة ثم ما لبثت أن غلبتها حقائق المنطقة التي زرعت بها ، هذا أيضاً مما لا نعرفه .

هناك بالطبع من يدعون المعرفة من الآن فيقولون إن إسرائيل إلى زوال أو إن السلام والتعاون سيحلان بينها وبين كل جيرانها ، لكنني أعتقد أن تلك المعرفة سابقة لأوانها وهي متأثرة بعواطف سابقة ،



وأنا أفضل أن أترك التجربة تفصح عن نفسها ، ففي مثل هذه المسائل فإن المعرفة لا تأتي إلا من التجربة والمعيشة ، والمعرفة السابقة لا يجب أن تؤثر علينا في ذلك حتى لا تفسد التجربة .

○ ما هي بداية عهدك بالمعرفة ؟

□ أذكر أنني قد اقتنيت عام ١٩٣٠ أى قبل ٦٥ عاما كتابا أشبه بدائرة المعارف يسمى «المعرفة الجديدة» New Knowledge ، وقد كنت شغوفاً جداً بهذا الكتاب ، فقد كان عمري أقل من الـ ١٨ عاماً ، وكان الكتاب يحيط بكل الأنشطة الإنسانية التي كانت تساورني فيها الأسئلة ، من علوم وفنون وآداب ، ولقد احتفظت بهذا الكتاب طوال حياتي لأنه كان من الكتب التي نقلتني في مجالات كثيرة من حالة اللامعرفة إلى حالة المعرفة .

ولقد عدت منذ سنوات قليلة إلى هذا الكتاب ، فعجبت لقدم المعلومات التي كان يحويها والتي عفي عليها الزمان حتى أصبحت « قديمة كوهنة » .

كذلك كانت هناك سلسلة من الكتب في الثقافة العلمية أصدرها صحافي كان معروفاً في ذلك الوقت اعتقد أنه لبناني في الطبيعة ، الكيمياء ، الحيوان ، النبات ، الفلك ، وهكذا ، وقد كانت هذه السلسلة هي الأخرى إحدى سبلي الأولى للثقافة العلمية ، وقد استفدت منها استفادة كبيرة جداً .

وأذكر مثلاً أن أحد الاكتشافات الجديدة التي كانت تلك السلسلة تبدو فرحة جداً بها كانت الفيتامينات ، ولا أذكر في الطبيعة إن كانت قد وصلت إلى نظرية الاحتمالات أم إنها توقف عند النسبية .

○ وفي مجال الأدب ، كيف كانت بداية رحلتك ؟

□ كانت البداية احساساً مؤلماً بعدم المعرفة ، وبشغف كبير بالاستزادة من الفنون والآداب . وأذكر أنني كنت وأنا طالب بالمدرسة أضع قائمة للقراءة تضم أهم الأعمال التي على أن أقرأها ، لكن مع قراءتي كانت هذه القائمة تزداد ولا تقل ، فقد كان كل

كتاب جديد أقرؤه يفتح عيني على كتب أخرى أجهلها ، وكنت أشعر دائما بأن الجهل يطاردني ، وأنا أتعلق بأذيال معرفة بسيطة ، رغم أنه لم يمض يوم في حياتي دون أن أحصل فيه معرفة جديدة .

ولقد توصلت في بداية حياتي إلى كتاب يسمى Outline of Lit- erature لمؤلف يدعى Drinkwater وكتاب ثان بعنوان Outline of Art فكان الأول يقدم الأدب من وقت الإغريق إلى عهد مارسيل بروس ، وقد وضعت نصب عيني أن أقرأ لكل قمة من القمم التي حوّاها الكتاب القمة الخاصة بها ، وبالفعل قرأت كل ذلك ، لكنني كنت أكتشف أن معرفتي بشكسبير مثلا لا يمكن أن تعتمد على قراءة عمل واحد له حتى ولو كان هذا العمل هو إحدى قممه ، والشئ نفسه بالنسبة لديكنز أو مولير أو صوفل أو غيرهم .

أما في الأدب العربي فإن معرفتي بدأت بالتراث من القرآن والأحاديث إلى الشعر الجاهلي وانتهاء بأساتذتنا طه حسين والعقاد والمازني وهيكل وتوفيق الحكيم ، ومعظم هؤلاء قرأت أعمالهم كلها مثل المتنبي والجاحظ وأبي العلاء المعري الذي كان الشك وعدم المعرفة هما حياته كلها ، كما استهوانى أيضا البحترى وأبو نواس وبشار بن برد .

وأستطيع أن أقول إن اقتناعاتي بالفن والأدب هي من المعارف التي لم تتزعزع طوال سنوات حياتي ، باعتبارها نشاطا إنسانيا ساميا ونبيلًا لا غنى عنه من أجل سلامة الإنسان .

○ وأى معارف أخرى غير الأدب بدأت بها حياتك ولم تكتشف أنها عدم معرفة؟

□ هناك في حياتي بعض الثوابت مثل الوطنية ، فمهما اختلفت اقتناعاتي السياسة وتبدلت إلا أن إحساسى الوطنى هو حقيقة لا تتغير ولا تتبدل ، فإنني أنتمي لجيل كانت السياسة جزءا من تكوينه . ففي بدايات القرن كانت قضية الاستقلال وجلاء القوات الإنجليزية حقيقة من حقائق الحياة ، وكان الزعيم سعد زغلول هو

رمز هذه القضية بل كان رمزا للوطنية ذاتها ، ولذلك فقد نشأت على حب مصر ، وحتى الاشتراكية فى سنوات النضج لم تنجح فى زعزعة هذا الشعور بالوطنية الذى كان حقيقة ثابتة فهناك مثال من جعلوا الاشتراكية العالمية تزيج الوطنية ، لكن الوطنية وإن اتجهت عندى إلى العالمية لأنها ليست وطنية شوفينية إلا أنها لا تذوب أبدا فى هذه العالمية . وقد وجدنا أن الوطنيات التى كانت قد تصورت أنها ذابت فى الاتحاد السوفيتى قد عادت مرة أخرى تطل برأسها كحقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها .

وإنى لأشعر بأن معرفتى بمصر ليس بها أي مناطق جهل أو عدم معرفة ، فلا أستطيع أن أقول إن هناك ما لا أعرف فيما يختص بمصر ، وأنا لا أقصد هنا المعرفة الإحصائية الموجودة فى الأرقام والبيانات ، وإنما أقصد المعرفة الكلية التى تحيى من القلب .

○ ما هى مساحات اللامعرفة فى عقل نجيب محفوظ ؟

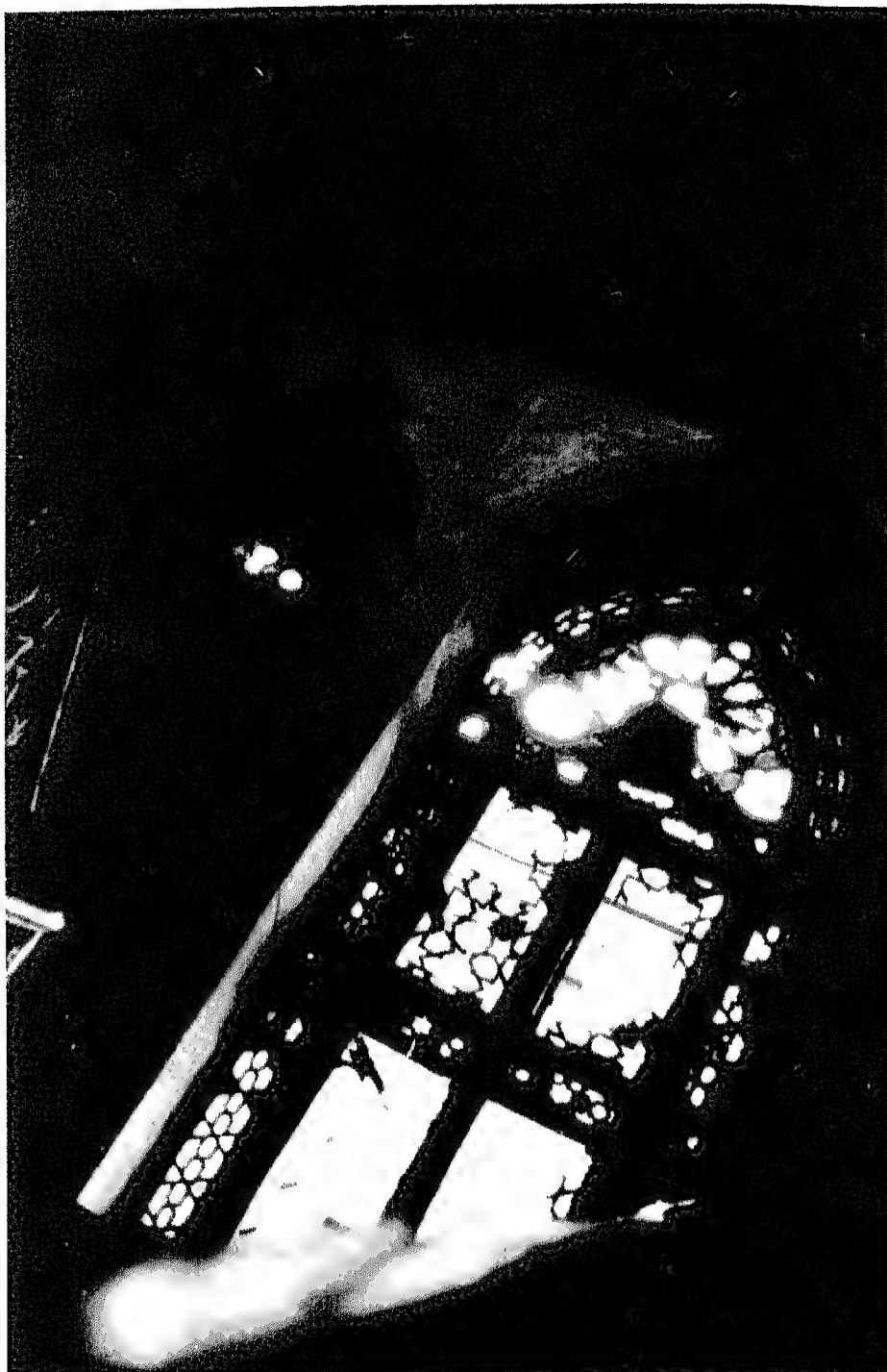
□ مساحات كبيرة جدا ، بل إن مساحات عدم المعرفة عندى أكبر بكثير من مساحات المعرفة ، لكن لدى غريزة تتطلع دائما الى المعرفة وأنا حريص عليها كههدف أساسى من أهداف حياتى ، فلماذا كان الإنسان حيوانا ناطقا فذلك يعنى أنه حيوان معرفة ، وبدون المعرفة حرصا وبحثا ، وتفكيراً وشكاً و يقينا يصبح الإنسان حيوانا .

إننا بلا شك قد بدأنا مرحلة فى تاريخنا ، التفاوت بين الناس فيها هو تفاوت فى المعرفة وليس فى القوة . واليابان وألمانيا هما مثالان واضحيان ، فقد فرضا وجودهما ليس بالقوة ، فاليابان ليس لها جيش مثلا ، ولكن بالمعرفة من علوم وتكنولوجيا .

○ ماذا فعلت المعرفة بالإنسان خلال القرون الطويلة الماضية ؟ هل

أسعدته أم كان أكثر سعادة حين لم يكن يعرف ؟

□ أنا من المؤمنين بالعلم وبدوره الهام فى حياة الإنسان ، وأرى أن المعرفة قد أوجدت للإنسان ثروة لا تقدر بثمن ، فقد عرفته أولا



بنفسه وبقوانينها الخفية ، وعرفته بما يحيط به من مخلوقات أو من عناصر الطبيعة ، وتلك معارف جليلة الشأن وجليلة الفائدة ، أما إذا كانت هذه المعرفة قد تسببت في تعاسة الإنسان فهذا لأنه استخدمها في التلذذ ، وهذا يتعلق بأخلاق الإنسان أكثر مما يتعلق بالمعرفة ذاتها التي هي ثروة في يده تزداد يوما بعد يوم . . انظر إلى استغلالها في جوانب حياتنا ، فما بدأ تكنولوجيا تستعصي على الإنسان العادي أصبح الآن جزءا من حياتنا اليومية .

وينهي الأستاذ حديثه قائلا :

□ أنا مع المعرفة ، فهي طرق النجاة الوحيد وسط محيط عدم المعرفة المخيف والمتلاطم الأمواج الذي قدر لنا العيش فيه .

○ هل مرت عليك لحظات شك على مستوى العقيدة ؟

فيقول :

□ نعم

ثم يضيف

□ كان ذلك في مستقبل العمر حين أردت أن أخضع عقيدتي للعقل والمنطق والعلم . كانت تلك فترة طويلة وأليمة ، لكنني خرجت منها كما خرج الغزالي أي خرجت بقلبي لا بعقلي خرجت منها باليقين ، لكنه يقين الإيمان ، أما العقل فقد سحبه اليقين وراءه .

○ كم دامت فترة الشك هذه ؟

□ أربع أو خمس سنوات .

○ هل انعكس ذلك على أي من كتاباتك ؟

□ في تلك الفترة لم أكن قد بدأت الكتابة بعد ، لكنك يمكن أن تجد لها أصداء فيما بعد في روايات مثل « الطريق » أو « الشحات » ، حيث محاولة معرفة المطلق معرفة عقلية ، وهي محاولة تفشل في

الروايتين، في « الطريق » يسعى البطل لمقابلة والده ليتعرف عليه وليبادل السلام لكنه لا يصل إليه أبدا رغم شعوره الأكيد بوجوده .

أما في « الشحات » فهناك خطوة متقدمة على ذلك هي أن البطل يتنازل عن المطلق حين يشعر به بقلبه ، أى يتنازل عن المعرفة العقلية في مقابل المعرفة القلبية بعد أن يكتشف البطل في نهاية الرواية أن هناك معرفة أخرى هي المعرفة القلبية .

○ بعد كل ما حققته البشرية من تقدم وتكنولوجيا . . هل ما زال هناك مكان في عالمنا المادى هذا للدين ؟

يقول الأستاذ دون لحظة تردد :

□ بل دعني أقول لك إنه بسبب هذا التقدم الذى سخر للإنسان قوة هائلة ، لم يكن يسيطر عليها من قبل ولم يكن يتصورها حتى فى الخيال ، أصبحت ضرورة الدين أشد ، لأن هذه القوة إما أن يراعى فى استخدامها شئ من المبادئ الإنسانية والأخلاقية ، أو ستخضع لتقدير العقل والمصلحة وحدهما ، والعقل والمصلحة بعيدا عن المبادئ قد تنشأ عنهما الكثير من الكوارث مثل الحربين العظميين مثلا اللتين كان الدافع وراءهما هو المصلحة ، إن ما نراه الآن حولنا من جرائم وأحداث اغتصاب وأعمال عنف إنما هو نتاج لانفصال العقل والمصلحة عن المبادئ . . أما حين تخضع قوة الإنسان للمبادئ الدينية فإنها تصبح لخير الإنسان .

○ أوليس الدين بهذه الصورة - كمنظومة من المبادئ - يمكن الاستعاضة عنه ببعض الفلسفات الوضعية الحديثة التى تنطوي هي الأخرى على المبادئ الإنسانية والأخلاقية ؟

هناك من الفلسفات ما يدعو إلى المبادئ العامة هذا صحيح ، لكن أغلبها متأثر بالأصل الديني . . فلم يكن جان جاك روسو مثلا بعيدا عن المسيحية ولا كان فرانسيس بيكون ، على أن ما يقدمه الإنسان من اجتهاد ليس مثل ما يتلقاه وهو مؤمن بأنه آت من رب

هذا الكون ، هناك فرق كبير بين الاثنين ، لذلك تجد مبادئ بعض الناس أحسن ما تكون ، لكن أصحاب الإيمان وحدهم هم الذين يموتون في سبيل المثل والمبادئ النبيلة ، فوراء التضحية دائما إيمان وليس مجرد اقتناع عقلي ، وهو ما جعل الفلاسفة أنفسهم يطالبون بالدين مثل الفرنسي فيكتور كوزان الذي قال في القرن الماضي إننا في حاجة إلى الدين من أجل الدين .

○ إذن الفارق بين الفلسفة والدين هو الإيمان بوجود الله .

فقال مبتسما :

□ وهل هذا فارق بسيط ؟ . . إن الذي يخلق المبادئ بعقله قد يتشكك فيها ، قد يقول لنفسه ما الذي يلزمني بهذا ؟ . . ولماذا أضحي ببلذتي وسعادتي السريعة ، وكافة الفوائد الأخرى من أجل بضعة أفكار ؟ . . لكن حين تكون المبادئ مستوحاة من الإله صاحب الكون وخالق الناس ، يكون لها معنى آخر . .

ثم يضيف :

□ الله هو الذي يعطي للقيم معناها . . الله هو الذي يعطي الوجود معناه . . بدونه لا معنى للوجود . . لا معنى للقيم . . وبديله هو العبث . . اللا معنى .

من الثورة إلى الديمقراطية



وقلت لنجيب محفوظ :

○ لقد عبرت في أعمالك عن أهم حدثين في التاريخ الحديث للشعب المصري ، وهما ثورة ١٩١٩ ، وثورة ١٩٥٢ . فماذا تمثل لك كل منهما ؟
قال :

□ في سني الصغیر كانت ثورة ١٩ تمثل لي مجموعة من الناس يتجمعون ويهتفون ويهجمون علي بعض المنشآت ثم يُضربون بالرصاص وتسيل دماؤهم وكنت أرى الخيالة الإنجليزية في أيديهم البنادق التي يطلقونها على المصريين ، مازلت أرى هذه الصورة واضحة في مخيلتي منذ سن السابعة ، وإن كنت في ذلك الوقت لم أكن أفهم هذه الأحداث .

كانت هذه هي أول صورة للثورة في ذهني ، لكن مع تقدم السن وخلال فترة حياة سعد (باشا) ثم بعد ذلك مع النحاس عرفت أن الثورة قامت من أجل الاستقلال الخارجي عن الاستعمار الإنجليزي ، وأيضاً من أجل الاستقلال الداخلي بيننا وبين حكم الملك المستبد ، وقد اتضحت لي معالم الثورة كاملة وأنا مازلت في سن الصبا وعرفت أن الإنجليز يحاربوننا حتى لا ينسحبوا من مصر كما أن أعوان الملك كانوا يحاربوننا حتى لا يتنازلوا عن السلطة .

أما ثورة ٥٢ فكانت ثورة من نوع آخر ، أخذناها نقطة نقطة ، أولاً من الناحية الوطنية ، من ناحية الكرامة الوطنية كانت شيئاً عظيماً جداً فهي في ذلك امتداد للحركات الشعبية التي كنت أشاهدها وأنا طفل ، وقد مكناها الزمن من تحقيق انتصارات أكثر

وأكبر ، لكن من حيث علاقتها كنظام حاكم بالشعب فقد كانت في رأيي استمراراً للنظام الملكي ولم أستطع حتى الآن أن أغفر لها ذلك .

إن ثورة يوليو قضت على النظام الملكي البائد ، وأسست نظاما جمهوريا حديثا وقضت على الفساد السياسي والاجتماعي الذي كان سنة الحياة العامة في البلاد في ظل حكم الملك فاروق ، وأقامت نظاما جديدا يعلي من قيمة العمل والتعليم والتقدم بدلا من النسب والمال والتخلف لم يقف تأثيره عند حدود مصر فقط ، وإنما امتد ليشمل سائر الوطن العربي ، فكيف كانت الثورة امتدادا للنظام الملكي ؟

كان ذلك في جانب محدد وهو الالتزام بالدستور ، فإن السمة الأساسية للنظام الملكي القديم كان عدم الالتزام بالدستور ، وهو ما جعل القوى الوطنية في حالة صراع مع الملكية حيث كانت تطالب بأن يلزم الملك حدوده ويحكم البلاد وفق الدستور . وأنا أرى أن هذا الجانب في ثورة يوليو ٥٢ لم يختلف كثيرا عما كان في السابق .

لقد حققت ثورة يوليو الكثير كما قلت ، بل حققت ما لم تستطع تحقيقه الحركة الوطنية المصرية طوال تاريخها من الاستقلال في الخارج إلى مجانية التعليم في الداخل ، لكن خلافي معها كان في علاقتها بالشعب في نظام حكمها .

قلت :

○ هل تعتبر نفسك بحكم انتمائك لثورة ١٩ خصما لثورة ٥٢ ؟

قال على الفور وقد علت وجهه علامات الغضب :

□ لا . أنا لم أكن أبدا ضد ثورة ٥٢ ، ولا أعتبر نفسي من خصومها ، لكنني لم أكن أيضا معها بالكامل ، لقد كنت دائما منقسما ، وكنت أسأل رجال الثورة : لقد حققتم استقلال البلاد

فلماذا لم تمنحوا الشعب أيضا استقلاله؟ لماذا لم تشجعوا المشاركة السياسية من جانب الشعب الذى أنتم تنتمون إليه أكثر مما كان النظام الملكي القديم؟

و حين تتأمل ثورة يوليو تجد أن السمة الدكتاتورية لحكم الثورة كانت هي السبب وراء كل النكسات التى لحقت بنا ، ولو أننا استبدلنا الديموقراطية بالدكتاتورية لكانت هزيمة حرب ٦٧ مع إسرائيل لم تحدث ولوفرنا الملايين التى أنفقت باليمن بلا مبرر ، لأنه كان يمكن أن يكون هناك برلمان قوى ورأى معارض يبصر بالمخاطر .

لكن التاريخ لم يعرف ثورة قامت بالديمقراطية ، حتى لبدو أن الطريقة الوحيدة لإحداث التغييرات العظيمة التى تأتى بها الثورات لا يمكن أن تتحقق إلا قسرا ، ولو تركت الأمور للمداولة البرلمانية لاستمرت الأمور على ما هى عليه ، أو لحدث قدر من الإصلاح لا يرتقى ليكون ثورة جذرية تنقل البلاد من عصر إلى عصر .
وأستفسر :

○ ألم تُطرح فى البرلمان المصرى قبل الثورة الكثير من الإجراءات الإصلاحية مثل قانون الإصلاح الزراعى ، وتحديد الملكية الزراعية ؟ لكنها لم تنفذ ، وكذلك الثورة الفرنسية التى أثرت فى العالم كله بحيث لم يعد العالم كما كان بعدها ، لم تقم بالديمقراطية ولم تحترم البرلمان ، والشئ نفسه فى بريطانيا بلد أعرق الديمقراطيات الأوروبية ، حين قام فيها كرومويل بثورته ، اصطدم بالبرلمان وقام بحله .

فيقول نجيب محفوظ فى هدوء :

□ إننا نتحدث عن وضع استثنائى قام كرد فعل لأحوال متردية ، لكن ذلك لا ينبغى أن يتحول إلى سمة أساسية لنظام حكم يستمر ١٨ عاما .

إن الثورات تقوم كما تقوم لكنها فى النهاية بعد أن تحقق أهدافها

يجب أن تتحول إلى حكم المؤسسات . أما إذا استمرت وسائل القوة فى يد واحدة فقط فهذا قد يجهض أهداف الثورة ذاتها .

○ هناك من يقولون إنه فى ظل الأمية السائدة فى مصر، والتي تصل نسبتها إلى ما يقرب من ٧٠٪ فإن الديمقراطية لا تصلح كنظام سياسى .

□ تلك هى حجة الدكتاتوريين، فهم يقولون إن الشعب المصرى لم يحصل على شهادة الثانوية العامة بعد لكى يحصل على الديمقراطية، وإنه ينبغى أولاً الاهتمام بالتعليم والتقدم إلى أن تصل البلاد إلى مرحلة تستحق معها الديمقراطية، لكن تلك مغالطة فالشعوب لا تصل إلى مرحلة التقدم الذى يتحدثون عنه إلا عن طريق الديمقراطية، فى ظل حكم شعبى يهدف إلى تقدم الشعب والارتقاء به، والدليل على ذلك أن جميع الشعوب التى حصلت على الديمقراطية حصلت عليها وبها أغلبية أمية والكثير منها تغلب على الأمية فى ظل الديمقراطية . إن الديمقراطية هى الحريضة على التعليم . أما الحكم الاستبدادى فليس من مصلحته نشر التعليم والتنوير، وإزاء هذا رأى الذى تطرحه على أقول لك إنه إذا كان هناك هذه النسبة المرتفعة من الأمية فينبغى الإسراع بالديمقراطية فهى الباب إلى الثقافة والتعليم والأهلية .

○ هل للحضارة المصرية دور فى هذا الموضوع ؟ أى ألا يجعل تاريخ مصر وتقدمها على مدى آلاف السنين شعبها أهلاً للديمقراطية أكثر من شعوب نامية أخرى ما زالت حديثة العهد، وليست بدرجة نضج الشعب المصرى ؟

□ هذا صحيح، ولكن لماذا العودة إلى هذا التاريخ السحيق ؟ إن لمصر الحديثة تجربة ديمقراطية لا يفصل بينها وبين الديمقراطية الكبرى فى العالم إلا سنوات معدودة . فالبرلمان الذى وجد فى عهد الخديو إسماعيل منذ أكثر من قرن كامل من الزمان كان برلماناً وليداً، ولم يكن ينظر له بجدية إلا أن هذا البرلمان نفسه كان له دور فى خلع إسماعيل بعد ذلك، ثم إنه أيد الشاثر أحمد عرابى ضد

الحكم ، وعرابى أتى بالدستور وأحدث وحدة وطنية والذي هزم
الديموقراطية بعد بعد ذلك لم يكن الأمية والتخلف . وإنما كان
الاستعمار الإنجليزي ، ثم بعد ذلك فى التجربة الديمقراطية التالية
عام ١٩٢٤ أثبت الشعب المصرى أن لديه إحساسا مشرفا حقا ،
فصديقى الكاتب الروائى ثروت أباطة يحكى لى - وهو مندهش -
كيف أن الفلاحين الأميين فى قريته غزالة ، والذين كانوا يدينون
دائما بالولاء لوالده الدسوقى أباطة باشا قد أسقطوه لأول مرة فى
انتخابات ١٩٢٤ لأنهم كانوا يريدون حزب الوفد . ولقد شاهدت
فى العباسية ما هو أغرب ، فقد كان هناك فى أحد إنتخابات
الثلاثينات مرشح من الإخوان المسلمين وكان أمامه مرشح قبطى ،
لكن أبناء الدائرة وكانت غالبيتهم العظمى من المسلمين أنجحوا
المرشح القبطى لأنه كان من حزب الوفد ، وأسقطوا مرشح الإخوان
الذى منى بهزيمة منكرة لدرجة أنه لم يستطع استرداد التأمين الذى
دفعه لقلّة الأصوات التى حصل عليها . فهل هذا شعب يقال إنه
متخلف ويجب أن يتم تربيته أولا قبل أن يحصل على
الديموقراطية؟

إن الشعب المصرى قد يكون متخلفا تكنولوجيا ، أو صناعيا لكنه
من الناحية الثقافية فهو أكثر تقدما من شعوب أخرى صنعت القنبلة
النوية .





إسرائيل والسلم



ربما لم يتعرض أحد للمهجوم فيما يتعلق بموضوع إسرائيل مثلما تعرض نجيب محفوظ الذي كانت له ، وما زالت وجهة نظر ثابتة تدعو إلى السلم مع إسرائيل ، وتحاول إيجاد أسلوب آخر للتعامل معها غير الحرب .

ولقد سبق نجيب محفوظ في موقفه هذا الرئيس السادات نفسه ، حين أعلن هذا الموقف في المرحلة التالية لهزيمة ١٩٦٧ أى قبل زيارة السادات للقدس بحوالى عشر سنوات .

وقد كان من نتيجة ذلك أن منع نجيب محفوظ من الكتابة عام ١٩٧٣ ، وحجبت الأعمال الدرامية المقتبسة من رواياته فى تلفزيون الدولة ، وذلك بعد أن وقع عريضة مع عدد من كتاب ومثقفى مصر تعلن استيائها من حالة اللا سلم واللاحرب التى كانت سائدة ، وتطالب السادات بضرورة اتخاذ قرار فى هذا الصدد .

وبالطبع كان بعض الموقعين يرون الحل فى الحرب ، بينما كان البعض الآخر يراه فى السلم ، ومن بين هؤلاء كان محفوظ الذى كان من أوائل من طالبوا بالسلم فى العالم العربى .

وأسأل الاستاذ عما تعرض له من هجوم على مستوى الوطن العربى كله فيقول :

□ لقد كان هجوما مؤلما حقا لأنه كان يتعلق بشرفى الوطنى ذاته ، فحين أعبر عن رأى سياسى فإننى أتوقع أن يقول لى أحدهم أحسنت وأن يقول لى عشرة آخرون : أسأت ، أويقال لى : دك من السياسة وابق فى أدبك ، كل هذا مقبول منى لكن حين أنادى بالسلم والتفاوض فيقال إننى عميل إسرائيلى (١١) فهذا فيه ظلم لا يرضاه أحد ولا حتى من ارتكبهوه ، فلقد كان يجيئنى هؤلاء

ويقولون لي نحن نعلم أنك لست ما نقوله فيك لكننا نقول ذلك حتى نردع الآخرين .

وأسأل :

○ لماذا لم تلجأ للقضاء ؟ فيقول الأستاذ :

□ إن معالجة تلك الأمور لا يكون فقط بالقانون ، والإنسان الواثق من نفسه ومن موقفه يعرف أنه لا يصح في النهاية إلا الصحيح ، فهذا قد اتجه العالم العربى كله إلى طريق السلام والمفاوضة بمن في ذلك من اتهمونى بالخيانة والعمالة ، أليس في ذلك رد اعتبار تاريخى وقومى ؟ أقوى من أى حكم قضائى ؟

○ كيف ترى إسرائيل هل ستتمكن من الاندماج فى المنطقة وتصبح جزءا منها ، أم إنها ستظل دائما منعزلة عن بقية دول المنطقة كالقلاع الصليبية التى قامت منذ آلاف السنين ثم ما لبثت أن اندثرت ؟

□ قد نظل نتناقش فى هذا الموضوع فتقول أنت رأيا وأقول أنا رأيا آخر ، ونشاجر وقد نتضارب لكن تظل التجربة الفعلية بعيدة عني وعنك .

إن ما سيحدد الرد على سؤالك ليس النقاش ، وإنما التجربة العملية فهى وحدها التى ستظهر حقيقة الأمر ، فإذا تعاملت إسرائيل بالحسنى كان بها ، وحتى إذا ظهر أن كل ما قيل لنا عن حسن نيات إسرائيل هو زيف وخداع فلن نكون قد خسرنا الكثير ، ألسنا نحن الذين وقفنا ضد الصليبيين وطردهم بلا رجعة من جميع الأراضى العربية ؟ ألسنا نحن الذين وقفنا ضد الاحتلال منذ مائة عام ، وتحدينا أكبر الإمبراطوريات : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وحصلنا على الاستقلال وحافظنا على شخصيتنا وخصوصيتنا وعقائدنا فهل بعد ذلك نخشى أن نمحى بواسطة إسرائيل ؟ إن من يقولون بذلك هم عبدة إسرائيل وإن كانوا لا يعلمون .

ثم يرفع الأستاذ أصبعه في وجهي بطريقته المعهودة قائلا :

□ لن تستطيع أن تصد نفسك عن الآداب والفنون الأجنبية فهي تتسرب إلينا عبر أجهزة الراديو والتلفزيون في حجرة النوم ذاتها .

○ وإذا لم نكن نستطيع صد أنفسنا عنها فكيف نتعامل معها ؟ .

□ بالثقفة بالنفس ، يجب أن نربي أولادنا على الاستقلال الفكري وعدم الانبهار بدون سبب ، فإذا كانت هناك فكرة فلنفكر فيها ، ونمتحنها وننظر إليها بعين نقدية وقد ينتهي بنا الأمر إلى رفضها أو تعديلها أو اتخاذها كما هي إذا كانت جميلة ، والمقياس الوحيد في الفن هو أيهما أجمل ، وفي الفكر أيهما أصح ، فليس هناك أقبح من التقليد الأعمى .

ثم يضيف الأستاذ :

□ إن مصر ليست فقيرة في الثقافة ولا هي ضائعة حتى تخشى الثقافات الأخرى ، فمنذ سبعة آلاف سنة وهي تنتج الثقافة والفنون بأرقى ما يكون ، ولها شخصيتها ولها ثقافتها رغم الأزمة الطارئة التي تعيشها الآن ، فيجب ألا نخشى من أي فكر أجنبي . . بل أهلا به . . أتريدني أن أرفض الصحيح لأشياء إلا لأنه جاء من خصم ؟ إنني بذلك إنما أعادى نفسي .

فأقول :

○ لكن بعض من يتحدثون عن الغزو الثقافي ، إنما يقصدون الثقافة بمعناها الاثنوبولوجي ، أي كل ما يتعلق بأسلوب الحياة من عادات وتقاليده وليس فقط بمعناها الرفيع الدال على الآداب والفنون ، وهم يرون أن الغزو الثقافي قد يهدر بعض تقاليدنا وعاداتنا .

□ أنا أعتقد أنه ليس هناك عادة لحضارة أجنبية تحل محل عادة من عاداتنا إلا لسبب أنها أفيد أو أجمل ، إن لنا عادات للموت في التعازي والمآتم وقد بدأت تتغير فلم يعد المآتم ثلاثة أيام وإنما يوم واحد ، وقد اقتصر البعض على تشييع الجنازة فقط والتعازي

بالتلغراف ، هذا التغير كان لاختلاف ظروف الحياة وتأثرا بطرق أجنبية في التعامل مع الموت فما الضرر في ذلك ، إن بعض العادات لا ميزة فيها إلا أنها عادة الآباء والأجداد لكن العادة الوافدة قد تكون أفيد أو أجمل .

ما أريد أن أقوله هو أنه في الثقافة على الإنسان أولا : أن يعتز بثقافته ، ثانيا : أنه في اختياره من الثقافات المختلفة لا يجب أن يكون معياره في الحكم أن تلك ثقافة أجنبية في مقابل ثقافة آبائي وأجدادي ، وإنما أى الثقافتين أجمل وأيهما أفيد وأيهما أجدى .

وأنا شخصا لا مانع لدى أن تتغير بعض عاداتنا لأننا وجدنا أجمل منها في الغرب أو في الشرق ، وفي حضارتنا أشياء كثيرة جميلة لا يخشى عليها من التقليد الأجنبي أو من الغزو الثقافي .

○ وماذا عن تلك التى يخشى عليها ؟

أقول لها مع السلامة ، فهي إن هددها الغزو فذلك لأنها أضعف . فلماذا التمسك بها ، وتلك الثقافة الجديدة التى سأكتبها ستتفاعل مع تراثي ، وبعد جيل أو اثنين ستصبح ثقافتى وبعد بضعة أجيال ستصبح هى الأخرى ثقافة الآباء والأجداد .

○ ألا يمكن أن يحدث أن تندثر ثقافة جميلة أمام غزوة القبيح ؟

□ قد تحدث هذه المأساة ، لكن الخطأ يكون عندئذ خطانا ، ولا ذنب للغزو فيه ، فنحن الذين فرطنا في ما كان يجب الاحتفاظ به ، والتعامل مع هذا الغزو لا يكون بالانغلاق عنه لأنه سيتسرب سواء أردت أو لم ترد ، فإن لم يأتك هنا فستسافر له ومن الأفضل أن نعي ذلك ، لكن لا يجب أن نلقي تبعات تنازلنا عما هو جيد وجميل في حياتنا على ما نسميه الغزو الثقافي ، وألا نكون كمن يتهرب من مسؤوليته ، فإن حماية كل ما هو صالح في تراثنا هي مسئوليتنا وحدنا وليست مسئولية الآخرين .

ثم يقول صراحة وبلا مواربة :

□ أنا من موقع قوتي التاريخية والثقافية مستعد للتعامل مع إسرائيل ، إن كان لها أدب فسأقرؤه وأقول هذا جيد وهذا ردىء ، لكن من يحذرون من ذلك قائلين إن إسرائيل إذا دخلت في التجارة فستغلبنا وإذا دخلت في الثقافة فستمحقنا ، فإنهم قد مسح عقولهم ومحيت شجاعتهم الأدبية ، وزالت ثقتهم بأنفسهم ، وفقدوا استقلالهم أمام إسرائيل ، وهذا يعني أن روح الهزيمة أمام إسرائيل لم تبرح نفوسهم بعد .

إنني لن أنسى أحد المثقفين الوطنيين وهو يقول لي أنا أخشي لأننا لن نصاهيهم في التجارة ولا الصناعة وهم سيهزموننا ، كيف ذلك ؟

○ قد يكون ذلك مرجعه إلى أننا لسنا في أبهى عصورنا الثقافية في الوقت الحالي . .

فيقاطعني الأستاذ :

□ التأخر في مصر هو مرحلة عارضة وليس شيئا دائما ، وقد كان دائما هناك فترات انكسار طوال تاريخها ، ومع ذلك فلا أشك في أنك تتفق معي في أننا لسنا أكثر تخلفا مما كنا ونحن نحارب أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ الحديث ، والتي لم تكن تغيب عنها الشمس ، لقد كان المستعمرون البريطانيون يقولون إن خروجهم من مصر هو حلم غير قابل للتحقيق ، وللأسف فإن بعض المصريين كانوا يقولون ذلك أيضا ، ومع ذلك خرجت بريطانيا وتحررت مصر من الاستعمار .

هذه هي مصر ، إننا أمة حضارة عاشت سبعة آلاف سنة ، وتعاملت مع جميع الأمم والملل بالخير والشر ، ومصر لا تخرج أفضل ما فيها إلا في مواجهة التحدي ، وهي لن تحقق كامل عظمتها إلا إذا عرفت كيف تتعامل مع التحديات التي تواجهها ، ووسيلتها في ذلك هي المواجهة وليس الهروب ، الشجاعة وليس الخوف ، الانفتاح وليس الانعزال .



والحظ في حديث الأستاذ انفعالا نابعا ليس عن حماس لإسرائيل ، وإنما عن إيمان قوى وراسخ بقدره مصر وقوتها ، فأواصل حديثي عما أصبح يعرف بين المثقفين المصريين والعرب باسم الغزو الثقافي ، والذي دعا غالبيتنا يصرون على المقاطعة حفاظا على الثقافة العربية ، فيقول :

□ إن الصراع الثقافي غير الصراع العسكري ، ففي الصراع العسكري هناك قتل وإبادة ، والمعاركة قد تنتهي بسحق أحد الأطراف المتصارعة ، بينما الثقافة لا يمكن إلا أن تزيد من رقعة الجمال التي يمكن أن تستمتع به . إن تعبير الغزو الثقافي يعني شيئا مختلفا تماما عن الغزو العسكري ، فإذا اطلعت على ثقافة أجنبية لدولة صديقة أو عدوة فاستفيد منها ، وستكون سببا من أسباب تفوقي في المستقبل .

□ هل تعرف الأدب الإسرائيلي ؟

قليلًا ، فما ترجم منه إلى العربية ضئيل جدا ، ولقد قرأت أخيرا بعض الروايات القصيرة لعجلون الفائز بنوبل وهي أدب جيد يجرى في مجرى واحد مع أدبنا رغم أن أسلوبه غربي ، لكنني لم أجد فيه تفوقا لافتا للنظر ، بل إن لدينا أدبا أجود منه ، ولكن حتى على فرض أن الأدب الإسرائيلي متفوق على أدبنا فماذا نخشى ؟

لقد قرأنا في زمن من الأزمنة الأدب الفرنسي ، وكان متفوقا على أدبنا في ذلك الوقت ، وقرأنا الأديب الإنجليزى والألماني فماذا حدث ؟ حدث أننا هضمناه وحاولنا أن نتج مثله ونجح بعضنا في هذا ، إذن فقد كانت الآداب الأخرى حافزا لتفوق الأدب العربي وليست ماحية له .

المرأة والجـريه والأدب



وأسال الأستاذ :

○ من هي المرأة التي أثرت في حياتك ؟

فيقول :

الأم كان لها دور كبير في حياتي ، وكذلك الزوجة ، والحب بمعناه الأفلاطوني كان له أثر كبير على في سن المراهقة ، ثم أتى بعد ذلك الحب الناضج ، أما قلبي في القاهرة من قمتها إلى أسفلها ومن أسفلها إلى قمتها فقد جعلني أعرف وأخبر النساء من جميع الأشكال والألوان .

وأنا صغير عرفت العوالم ، وكانت هناك صالات الملاهي مثل صالة بديعة وغيرها ، حيث عرفنا الرقصات والمغنيات ومشينا في شارع النساء من أوله إلى آخره بخيره وشره .

○ ماذا كان دور الأم في حياتك ؟

□ دورها كان كبيراً . والأم في عصرنا بصفة خاصة كانت سيدة بيت ، ولم تكن موظفة . وكان الزوج يعمل خارج البيت لذلك كانت صلة الأم بالأبناء قوية جداً ، والأب عادة ما كان على الهامش خاصة في السنوات الأولى ولا يظهر إلا وقت الأزمات ، أما الأم فهي كل شيء ، وقد استفدت من أمي حناناً ما زلت أذكره ، وأشعر بدفئته وقد تخطيت الثمانين .

كذلك من الناحية المعرفية لعبت أمي في حياتي دوراً كبيراً جداً لأنها - لا أدري الأسباب - كانت إلى جانب زيارة الأضرحة والأولياء كانت مولعة بزيارة الآثار القديمة التي كانت تهتم بها اهتماماً كبيراً رغم أنها كانت سيدة كبيرة وأمية ومن الجيل القديم ،

وأستطيع أن أؤكد لك أننى زرت معها دار الآثار المصرية «الانتخانة» عشرات المرات والهرم وأبا الهول ، وكانت تقف أمامها فى انبهار وكأنها فى حالة تعبد ، كذلك زرت معها جميع الآثار القبطية ومنها : كنيسة ما رجر جس التى ما زلت أذكر زيارتى المتكررة لها ، فقد كانت أمى جواله ، ولست أعرف كيف نمت عندها هذه الغية ، ولقد كانت تعرف شهرة هذه الأماكن فتختارها بالتحديد ، وكنت أصحبها فى هذه الجولات منذ الرابعة أو الخامسة .

○ هل كونك آخر الأبناء قرب بينك وبين والدتك ؟

فعلا فحين تفتحت مداركى وجدت أن أشقائى جميعا رجالا ونساء تزوجوا ، ولم يكن فى البيت غيرى مع أمى وهذا فرض علىّ إلى جانب ذلك أن أتعلم كيف أعيش وحدى حين كانت تشغل والدتى عنى .

كان هذا هو فضل والدتى علي ، ثم يأتى بعد ذلك فضل الزوجة وقد كان انشغالى بالقراءة والكتابة يأخذ كل وقتى لكنها تفهمت الوضع ، ولولا ذلك لانفجرت هذه الحياة بطريقة أو بأخرى . فى بعض الأحيان يمكن أن يكون هناك أخذ على الخاطر لكن بشكل عام فإن زوجتى تفهمت طبيعة حياتى ككاتب وقبلت هذا .

○ وما هى طبيعة علاقتك بابنتيك أم كلثوم وفاطمة ؟

لقد ربيتهم على قدر كبير من الاستقلالية ، رغم أننى تربيت فيما يشبه العصر العثمانى ، فهما متعلمتان وتعملان ، وكل منهما حرة فى أن تكون نفسها ، لكن رغم هذه الاستقلالية التى تعودتا عليها فهما متدينتان جدا ، تصليان وتصومان وقد حجتا إلى بيت الله الحرام ، وهما لا تنبهران كثيرا ببريق الحياة الزائفة ، وحين يطلب منى مثلا أن تجرى معى أحاديث عائلية ، فهما ترفضان المشاركة فيها قائلتين إن هذا عملى فما لهما به ؟ وما صفتهم حتى تظهرها فى الصحف أو التلفزيون ؟ أما عن نفسى فأنا ليرالى إلى

أقصى درجة معهما ، وقد كنت أعرض عليهما فإذا قبلتا العرض قبل ، وإذا رفضتا لم أكن أضغط أبداً في أى اتجاه فيجب على كل إنسان أن يتخذ خياراته بنفسه .

○ إذا انتقلنا إلى أعمالك الأدبية لمجد أن تنوع نماذج المرأة التي ظهرت في رواياتك يشكل موسوعة كاملة للشخصيات النسائية من المرأة المغلوبة على أمرها إلى العاهرة ، ومن المرأة الأمية إلى المثقفة ، والغريب هو أنك صورتهم جميعاً بنفس درجة المعرفة والإتقان ، بل وب نفس درجة التعاطف أيضاً .

□ أنا متعاطف مع جميع أنواع البشر ، بل في بعض الأحيان حين يكون هناك نموذج كرهه فإني أحاول تجنبه لأننى لا أستطيع أن أتمثله ، لذلك تبقى مثل هذه الشخصيات على الهامش ، حتى بطل القاهرة الجديدة تجدنى قد حدثتك عن دوافعه وظروفه السيئة التي دفعته لأن يصبح هذه الشخصية النفعية المتسلقة ، وكأنه ليس اتهاماً وإنما دفاع غير مقصود ، وأنا لا أذكر أننى قد كرهت أى شخصية أساسية من شخصيات رواياتى ، وهناك من الشخصيات من أدينها لكنى أحبها ، وبدون هذا الحب لم يكن من الممكن أن أفهمها وأن أكتب عنها .

○ نلاحظ مثلاً في تصويرك لنموذج المرأة الساقطة أنه ليس موقف دفاع فلسفى مثل موقف سارتر على سبيل المثال فى مسرحيته الشهيرة «الموسم الفاضلة» وإنما هو أقرب لموقف تولوز لوتريك الفنان الذى صور راقصات الكباريهات فى لوحاته بقدر كبير جداً من الفهم والتعاطف ، والمثال على ذلك هو شخصية نفيسة مثلاً فى بداية ونهاية حيث لمجد توضيحاً كاملاً للظروف التي دفعت بها دفعا إلى طريق الانحراف ، وكأن بالرواية محاولة واضحة لتبرير موقف نفيسة المغلوبة على أمرها والإدانة هنا كلها تقريبا فى جانب الشخصيات الأخرى التي دفعته إلى هذا الطريق وفى مقدمتهم شقيقها الضابط .

فيقول فى اقتضاب :



□ إن بداية ونهاية هي في الواقع إدانة لمجتمع ما ، ولم يكن من الممكن ، ولا السليم أن أوزع هذه الإدانة بين المجتمع وضحاياه .

○ وماذا عن الجريمة في أدب لجيب محفوظ ، إن استخدام الجريمة متكرر في رواياتك فما هي دلالات ذلك ؟

□ الجريمة عندي هي الجريمة الاجتماعية ، فأنا تجذبني الجريمة التي تظهر فيها بصمات المجتمع وأحواله السيئة بحيث لو كان المجتمع أفضل لما وجدت هذه الجريمة ، فمثلا في اللص والكلاب لو لم تكن تلك الظروف السيئة التي كانت تستحق الإدانة لما أطلق البطل النار ولما سرق أو ارتكب الجريمة .

○ هل كنت تستلهم شيئاً من صفحات الجرائم بالصحف ؟

□ لا ، فإن الجرائم التي أعنى بها في معظم الأحيان جرائم خاصة أو يمكن أن نسميها جرائم فلسفية مثل من يبحث عن الخير ، لكنه يضيع أو ينحرف ، والمثال على ذلك رواية الطريق التي كان يبحث فيها البطل عن الحقيقة المطلقة لكن قدمه زلت في الشر ، فبدلاً من أن يصل إلى ما كان يصبو إليه وصل إلى جبل المشقة .

○ هل هناك من أحداث الحياة ما ألهمك بعض أعمالك ؟

□ إن كل ما يكتبه الأديب هو إلهام من الحياة ، فيمكن لشخص أو موقف أن يحرك الأديب إلى الكتابة ، وحتى حين تكون الرواية هي نتاج لتأمله أو فكره وليست من الأحداث اليومية للحياة فإن هذا الفكر هو في الحقيقة نتاج لتفاعل الأديب مع الواقع الذي يعيشه .

ربطة العنق والفول والطعممية



من أهم الخصائص الشخصية لنجيب محفوظ البساطة والتواضع ، وقد كنت فى مكتبه بجريدة الأهرام فى أحد الأيام ، وكان قد مضى على إعلان فوزه بجائزة نوبل حوالى شهر لم يقطع خلاله سيل الصحفيين ورجال الإعلام عن التوافد إلى مكتبه لإجراء الأحاديث وعقد اللقاءات ، فأراد أن يستريح قليلا فأخبر سكرتيرته بالأحد أية مواعيد لأنه سيذهب إلى الإسكندرية لقضاء يومين للاستحمام . وسألته السكرتيرة كيف سيسافر؟ هل يريد أن تعد له سيارة خاصة ؟ حيث إن لنجيب محفوظ لا يملك سيارة خاصة فاندش لسؤالها وقال : بلى سأسافر كما أسافر دائما بالأتوبيس العام فقالت السكرتيرة ولكن الآن بعد نوبل . . فقاطعتها : وماذا بعد نوبل ؟ أنا كما أنا لم يتغير شىء فى حياتى .

فتدخلت فى الحديث قائلاً إن السكرتيرة لا تقصد أن حياته يجب أن تتغير بسبب نوبل ، ولكن فوزه بالجائزة يعتبر حدثاً وطنياً كبيراً دفع جميع أبناء البلاد للتهافت على لنجيب محفوظ ومصافحته والتحدث إليه كلما رأوه فى أى مكان عام ، لذلك فهو لن ينعم بأية راحة لو أنه سافر فى الأتوبيس العام .

فرد محفوظ بابتسامة هادئة : ربما كان من حق أبناء البلد على أن يصافحونى فإن إقبالهم على قراءة كتاباتى هو الذى منحنى فى النهاية هذه الجائزة . . وأسوأ ما يمكن أن يحدث لى هو أن تعزلى نوبل عن الناس .

وتظهر البساطة وعدم التكلف فى المظهر العام لأدينا الكبير فهو لا يلبس ربطة عنق أبداً ، وهو دائم أهداء ربطات العنق التى تجيئها إلى أصدقائه بمناسبة وبدون مناسبة ، وأذكر أنه فى مرة أثناء زيارة عادية فى بيته أنه قدم لى ربطة عنق أنيقة ، وحين سألتها عن المناسبة قال :

المناسبة أنتسى لا أعرف ماذا أفعل بكل ما يجثنى من ربطات العنق
هذه ا

ومع ذلك فقد وجدت بين صور لجيب محفوظ القديمة جدا صورة له
وهو يرتدى ليس فقط ربطة عنق وإنما « باييون » وكلما أردت أن أسأله عن
تلك الصورة الغامضة يغيب الموضوع عن بالي .

يقول الأستاذ :

□ ظلمت ألبس ربطة العنق لسنوات طويلة ، لكنني كنت أصبت
منذ زمن بحساسية جلدية فأصبحت أية ربطة على عنقي تضايقني ،
ولم أكن في البداية أستطيع أن أجاهر بعدم ارتداء ربطة العنق فكنت
أدارى ذلك بأن ألبس « بلوفر » يخفي العنق لكنني بعد ذلك أفلعت
عن ذلك أيضا ، والآن لا أستطيع أن أعود إلى ربطة العنق ثانية
لأنني لا أعرف كيف تربط .

○ أليس بدولاب ملابسك ربطة عنق واحدة ؟

□ ولا واحدة ، وقد كان بعض الأصدقاء مثل يوسف السباعي
كلما سافروا إلى الخارج أحضروا لي معهم أربطة عنق فاخرة فكنت
أخذ الهدية وأستأذنهم في أنني سأقوم بإهدائها .

○ لكنك لم تعد تلبسها حتى في أكثر المناسبات رسمية ، وأذكر حين
أقام الرئيس حسنى مبارك حفلا على شرفكم بمناسبة حصولك على
جائزة نوبل ودعي للحفل الذى أقيم برئاسة الجمهورية كبار أدباء العالم
أنك حضرت إلى الحفل بدون ربطة عنق .

□ لكنني كنت أرتدى قميصا أسود مقفولا وفي هذا أقسى ما
استطعته من رسمية ، فالزمن ليس كالزمن و رئاسة الجمهورية ليست
كالقصر الملكي ، ورئيس الجمهورية رجل بسيط يسير في بعض
الأحيان بالقميص والبنطلون ولا يلتفت كثيرا لهذه الأمور .

○ وماذا عن رداء الرأس لقد شاهدت لك صورا كثيرة بالطربوش
فمتي أفلعت عنه ؟

□ أفلعت عنه بشكل نهائي بعد الثورة ، وكنت سعيدا جدا بذلك ، فقبل عام ١٩٥٢ لم يكن من الممكن أن أدخل على مدير بالوزارة بدون طربوش إلى أن أصبح المدير نفسه يأتي بعد ذلك بلا طربوش .

○ لكنك كنت تلبس القبعة . .

□ القبعة كنت ألبسها في الصيف فقط لنفس حساسية الجلد التي حدثت عندها ، فقد قام صديقي الأديب مصطفى أبو النصر بإهدائي قبعة وجدت أن بها فائدة ، وكانت عندي قبعة أخرى لا أعرف من أين جاءتني ولا أين ذهبت الآن هي وزميلتها ، فليس بدولابي الآن قبعات .

ثم يسرح الأستاذ بعيدا ليقول :

□ للقبعة تاريخ آخر في حياتنا . . حين كنا في مرحلة التعليم الثانوي وفي الجامعة ظهرت دعوة لارتداء القبعة كنوع من الفرجة والاندماج في الحضارة الغربية على أساس أن الطربوش هو رمز التأخر وأن القبعة هي رمز التقدم ، وهناك من قادوا هذه الحملة مثل المرحوم محمود عزمي ، وقد ظهرت في ذلك الوقت منولوجات تشغني بذلك فتقول « ما بدها ظيطة . . ما بدها عيطة لبسنا البرنيطة ! » .

لكن تلك الدعوة لم تستهوني لأنه في عز حماسي للحضارة الغربية لم يقل عندي شأن الحضارة الأصلية العربية الإسلامية ، فكنت ترى على مكتبتي مؤلفات شكسبير والمتنبي مثلا في نفس الوقت .

○ كم بدلة في دولاب لجيب محفوظ ؟

ويفاجأ الأستاذ بالسؤال فيقول :

□ ماذا ؟

فأكرر عليه السؤال فيصمت لحظات لست أعرف متذكرا أم مستنكرا ثم يقول :

□ بالنسبة للبذل الشتوية لا تزيد عن عشرة ، وهذا كثير ، ففي بعض الأحيان قد يمضي الشتاء كله فأجد أنني لم أرتد أحداها إلا مرة واحدة ، ولقد مضت سنوات لم أفصل فيها أية بدل جديدة .

○ من كان ترزىك المفضل ؟

□ ترزى كان مشهورا بين أبناء جيلي أخذني إليه صديقي ثروت أباطة الذي جاءني مرة مستنكرا وقال : إنك لم يعد بينك وبين دليا إلا عشرة جنيهات فقط ، فقلت له ومن هو دليا هذا ، قال لي إنه أكبر ترزى في مصر ، وأجره لا يزيد عما تدفعه أنت الآن إلا عشرة جنيهات ، فلماذا لا تأتي معي إليه ليفصل لك بدلة محترمة ؟ إنه ترزى الأكابر ولا يفصل لك من هب ودب وسأكون أنا واسطتك عنده .

ولقد صار دليا بعد ذلك صديقا عزيزا ، ومنذ بضعة سنوات كان يجري عملية جراحية وذهبت لزيارته ودعوت له فوضع رأسه على كتفي وبكى ، ولم أره بعد ذلك فقد توفي وامتنعت أنا عن تفصيل البذل .

وسألت الأستاذ عن أكلاته المفضلة وفي تلك اللحظة دخلت السيدة عطية الله حرم الأستاذ فسمعت سؤالي وبدت على وجهها علامات الاندهاش فقال الأستاذ ضاحكا :

□ معذورة ، لقد تعودت حديثنا عن الأدب والسياسة ثم دخلت الآن لتجدنا قد وصلنا إلى المطبخ ، ثم أضاف :

□ أقول لك بداية إن الفول المدمس والطعمية لهما عندي منزلة الرواية في مجال الأدب فهما طبقا المفضل ، وحين أجريت عملية القلب في لندن عام ١٩٩١ فقدت شهيتي تماما للأكل ، فلقد كانت المائدة تأتي لي كل يوم مليئة بكل ما لذ وطاب وكانت تشبه في توبيخها اللوحة التشكيلية ، لكنني لم أكن أمسها ، وفي النهاية سألني مستر جرين الذي أجرى لي العملية وهو جراح عظيم : ماذا تريد أن تأكل ؟ فقلت له إنني لا أجد في نفسي الآن شهية إلا للفول



أو شربة العدس ، وكنت أتصور أنني بذلك أطلب المحال ، لكنهم قالوا لي إن ذلك موجود ولكن عند على بابا وهو محل للمأكولات الشرقية في قلب لندن ، وقد كان على بابا يأتي لي بعد ذلك كل يوم بشربة العدس والفل المدمس بزيت الزيتون والطعمية .

بعد ذلك أحب الملوخية التي كنت أكلها «كفتة» ، لكن بعد إصابتي بالسكر لم يعد بإمكانني أن أكل خبزاً كثيراً ، فأصبحت أكل الملوخية بالمعلقة وكأنها شربة ، لكن فتة الملوخية هذه لا يعلي عليها !

وكانت السيدة عطية الله قد أخبرتني أن طبق السلطة من أهم الأطباق على مائدة الأستاذ فسألته :

○ كيف تأكل السلطة ؟

فقال على الفور :

□ السلطة البلدي وحتى حين أذهب إلى الإسكندرية ، واضطر للنزول في فندق مثلاً فأنا دائماً أنبههم إلى أنني أحب أن تأتي السلطة على الطريقة البلدية وأن يكون الخبز أيضاً خبزاً بلدياً ساخناً .

ثم يتساءل : ولكن أين العيش البلدي الحقيقي الذي كنا نأكله زمان ؟ إن الخبز البلدي زمان وهو طالع من القرن كان بإمكانك أن تأكل رغيفاً كاملاً « حاف » عن تلذذ وليس عن فقر . . شيء غريب !

كنت أيضاً أحب الحلويات ، لكن ذلك أيضاً كان قبل الإصابة بالسكر فأنا مريض مؤدب جداً ومطيع ، حتى إنني لا أكل حلويات إلا ما صنع خصيصاً لمرضي السكر .

ويلح على السؤال :

○ ألا يوجد أي شيء مصري لا تحبه سواء في الأكل أو الموسيقى أو خلافه ولا يوجد أي شيء غير مصري تحبه ؟

□ فيقول : الشيء غير المصرى أحبه أيضا ولكن من بعيد ، فأنا أحب أن أجلس في قهوة الفيشاوي بالحسين ، لكن إذا قلت فلنذهب إلى فندق سميراميس فسأذهب معك وسأستمتع بالجلسة هناك ، لكنني أعلم طوال الوقت أنني عائد من جديد إلى الفيشاوي .





طعنات الموت!



يروى نجيب محفوظ في قصة له بعنوان « الحزن له أجنحة » عن رجل حاصره الموت من كل جانب ، حيث توفيت زوجته فحزن عليها حزناً كبيراً ، ثم ماتت زوجته الثانية والتي تزوجها بعد ذلك ، وما هي إلا سنوات قليلة وماتت ابنته ثم تبعها ابنه الذي ذهب إلى الحرب .

ويتوقع الراوى أن تحدث للرجل أمور أو ردود فعل تعيسة بعد أن أخذ منه الموت كل المحيطين به من أفراد أسرته وتركه وحيداً ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث حتى قال له الرجل يوماً :

لقد تضاريت الأحزان فهلكت جميعاً ، صدقنى لم أعد أشعر بالخوف لا على زوجتى ولا الابن ولا الابنة ، لا أدري كيف حل هذا السلام كله . . أنا الآن مثل طير لا تربطه علاقة بالأرض ويخيل إلى أننى لم أعرف السعادة من قبل كما أعرفها الآن .

لكن بالبحث عن الحزن فى حياة نجيب محفوظ لجده كثيراً فقد عرف الموت فى أكثر من مرة فى أحياء له مضوا بلا رجعة مثل والديه وزعيمه السياسى والعديد من أصدقائه المقربين ، لكن أحزانه لم تتضارب ولم تهلك بعضها بعضاً كما حدث لبطل قصته ، فكل موت عرفه محفوظ أثر فيه تأثيراً كبيراً ، وهو يتكلم عنه بألم واضح .

○ متى كانت أول مرة عرفت فيها الموت ؟

□ كان لى قريب يلعب معى فى بيتنا بحى الجمالية القديم ، وكان سني فى ذلك الوقت ست أو سبع سنوات على الأكثر ، أما هو فكان أصغر قليلاً ، وفى يوم من الأيام اختفى ، ولم يعد يأتى للعب وظللت أسأل : أين هو ؟ أين ذهب ؟ ولست أذكر بالضبط كيف أفهمونى أنه لن يأتى ثانية ، لكنى أذكر حديثاً بينى وبين والدتى

كنت أحتج فيه على ما كانت تحاول أن تفهمه لى عن موت قريبى هذا، فكانت تقول لى : إن ذلك هو أمر الله وإننا جميعا سنموت . لكنى لم أفهم ذلك وسألتها : وهل ستموتين أنت أيضا؟ فقالت : بالطبع ! فأجهشت بالبكاء فلم أكن قادراً فى سنى هذا على تقبل هذه الحقيقة وأعتقد أن تلك كانت أول مواجهة لى مع الموت كإحدى حقائق الحياة .

أذكر بعد ذلك زيارتى للمقابر مع والدتى وبعض أفراد العائلة، وكيف كانوا يقولون لى إن فلانا مدفون هنا وفلانا هناك ، وهكذا بدأت هذه الأشياء رويدا رويدا ترسخ لدى فكرة الموت بمعناها المادى البسيط ، ووجدت فى وقت من الأوقات أنه من الإيمان أن أعتقد بأن الموت حق علينا وكنت أعرف أننا سنموت . . أنا ووالدتى ووالدى وإخوتى ولكن فيما بعد ، فإذا كنت قد وصلت إلى قبول الموت كحقيقة إلا أن قبولى له كان مرتبطاً بأنه حقيقة مؤجلة .

ثم جاءت الطعنة التالية فى سن الخامسة والعشرين حين توفى والدى بعد أن كنت قد نسيت لسنوات طويلة حقيقة الموت التى عرفتها فى طفولتى المبكرة .

وكانت تلك تجربة أليمة للغاية لأنها كانت تجربة بكرا، فقد كان الذى أول أفراد أسرتى فى ملاقة الموت ، ولقد حزننت عليه حزنا ديدا جدا ثم توالى بعد ذلك طعنات الموت الواحدة تلو الأخرى . اعتدت ذلك .

○ كيف كان رحيل والدتك التى كانت لها منزلة خاصة فى نفسك ؟

□ من حسن حظى أننى تمتعت بحنان الأم إلى النهاية ، فقد مت والدتى سيدة معمرة ولم ترحل عن هذا العالم إلا بعد أن مل بى العمر إلى ما بعد الخمسين ، وهكذا تمتعت بكل فترات حمر التى تحتاج رعاية الأم وحنانها ، وأتصور أن يتيم الأم فى مغره قد فقد ثروة لاتقدر ، ولا تصدق من يقول بأن فلانة كانت له

بمشابة الأم ، فهذا كلام مجازى لأن منزلة الأم لا يشغلها إلا
الأم .

لكن الغريب فى الموضوع أنه رغم شدة حزنى على والدتى إلا
أن الصدمة لم تكن قوية مثل صدمتى فى وفاة والدى وأنا ما زلت
فى سنوات التكوين ، ولو حدث أن رحلت والدتى فى هذه السن
المبكرة لربما كنت قد تحطمت .

○ أفهم جيدا ما تقول فقد توفى والدى أنا أيضا قبل والدتى بعشرين
عاما ، توفيت والدتى وكان عمى يقترب من الخمسين ، لكنى أجد
الحزن ما زال ثقيلا . . يقولون إن الإنسان لا يبلغ سن الرشد إلا بموت
أمه . .

□ هذا صحيح ، فالإنسان طوال فترة حياة أمه يعتمد عليها
عاطفيا ووجدانيا أكثر مما يتصور ، لذلك فبرحيلها هو يفقد سندا
عظيما فى الحياة ، وعندها يدرك الإنسان أنه قد أصبح الآن وحيدا
فى هذا العالم وعليه أن يعتمد على نفسه فقط ، قد يكون للإنسان
أصدقاء وأحباء وأبناء وأحفاد . لكن يعلم أن مكان الأم قد أصبح
شاغرا إلى الأبد .

ثم يضيف بابتسامة رقيقة لا تخلو من بعض الأسى :
□ لكن يهيا لى أنه فى الحياة العصرية فإن مثل تلك المقولات قد
أصبحت حكما قديمة . . لقد تغيرت الدنيا وتغيرت معها العلاقات
الأسرية .

○ أعرف أنك تأثرت جدا لرحيل الزعيم الكبير سعد زغلول . .

فيقول على الفور :

□ لقد كان سعد باشا أبا الأمة بشيئته المهيبة ، ووفاته كانت وفاة
الأب على مستوى البلد كلها ، وحتى أعداؤه كثرت باشا وعدلى
باشا كانوا قد انضموا له فى النهاية لذلك فلم يكن هناك من لم
يحزن على وفاة سعد زغلول ، ولقد تأثرت له أبلغ تأثر ، فقد كان

عمرى فى ذلك الوقت ١٥ عاما ليس أكثر ولم أكن قد فقدت
والدى بعد ، وأذكر أننى صحت فى صباح يوم ٢٤ أغسطس عام
١٩٢٧ ، وما إن رفعت ناموسية سريرى حتى وجدت ابن شقيقى
وهو فى مثل سننى يدخل على الغرفة قائلاً لى : سعد باشا مات !

وكدت أقفز من السرير وأقبض بيدي على عنقه ، وسألته :
ماذا تقول ؟ وخرجت على الفور إلى الصالة فسمعت نهضة ، وإذا
بى أمام والدى ووالدتى يكيان ، ولم أكن قد رأيت والدى يبكى
قبل ، لكنى حين خرجت إلى الشارع وجدت أن البلد كلها كانت
تبكى .

○ هل قابلته خلال حياته ؟

□ لم أره قط . . كانت هناك فرصة وحيدة لرؤيته لكنها لم
تتحقق فحين اختلف مع الملك وقامت التظاهرات أمام سراى
عابدين تهتف سعد أو الثورة ! كان سعد سيجىء لمقابلة الملك فقلت
لنفسى : اليوم سأراه ! . . لكن ما إن وصل إلى ساحة عابدين حتى
أحاطت به الآلاف من كل اتجاه حتى إن سيارته تحولت إلى كتلة
بشرية تتقدم بصعوبة فى اتجاه القصر ، حاولت جاهدًا أن أجيء يمينًا
أو يسارًا علنى ألمحه لكنى لم أستطع حتى أن أرى سيارته

وتدمع عينا نجيب محفوظ وتحتبس الكلمات فى الحلق ، فيحل
الصمت لحظات متصلة لا أستطيع خلالها مواصلة الحوار احترامًا
للحظة ، وتقديرًا لمشاعر الرجل التى فاضت أمامى فى تلقائية نبيلة
فأقمع السؤال بداخلى فلا يطل برأسه إلا بعد أن يستعيد الأستاذ
هدوءه .

○ علام حزنك يا أستاذ ؟

□ ليس حزنًا . . الحزن قد فات وقته وانقضى ، إنه شريط
الذكريات التى أحيها حوارك اللعين . ثم يضيف : لقد كان سعد
زغلول هو المدرسة التى تخرجنا فيها جميعًا ، المدرسة التى تعلمنا
فيها كيف نحب مصر من يوم أن وجدت ، أن نحبها بقدر عمرها .

ويصمت الأستاذ من جديد ولا أرضى عن نفسه ، وأنا أقطع
الصمت بسرعة كي أوصل الحوار :

○ وماذا عما يقال عن أن سعدا بعد توليه الوزارة تراجع قليلا عن
مواقفه السابقة وصار يتعاون مع الإنجليز ؟

فيقول محفوظ في هدوء لكن بإصرار والدمع مازال في عينيه :

□ لم يتراجع أبدا ، والوزارة التي تولاها فعلت ما لم تفعله قبلها
وزارت مصر مجتمعة من حيث الإصلاح والمواقف الوطنية ، أما
عن علاقته بالإنجليز فبعد مقتل السردار فإن الإنجليز استخدموا القوة
وطردونا من السودان ، فماذا كان باستطاعة سعد أن يفعل ؟ وحين
وجه إليه أعضاء الحزب الوطنى المعارض مثل هذه الانتقادات قال
لهم : اعطونى تجريدة (أي جيش) وأنا أرد على الإنجليز . .

وتتوالى الذكريات فيقول الأستاذ

□ وحين ذهب اللبني يعطى لسعد إنذاره الشهير دخل عليه
مجلس الوزراء بالجيش والخيالة وبدون سلام أخرج الإنذار وقرأه ،
فقال له سعد بابتسامة : لم أكن أعلم أنكم أعلنتم الحرب !

○ كم حزنت على وفاته ؟

□ حزنا لم أحزنه على أحد . . ربما كان أكبر حزن فى حياتى .

○ إذا كانت تلك ذكريات رحيل سعد زغلول فى طفولتك ، فلقد
رحل جمال عبد الناصر ، وأنور السادات وأنت تقترب من الكهولة فماذا
كانت ذكريا لك عن يوم وفاة كل منهما ؟

□ لقد كان موت كل من عبد الناصر والسادات مختلفا تماما
خاصة عبد الناصر الذى كان رجلا فتيا قويا ، لقد كان الموت برحيله
يسدد لى طعنة جديدة ليذكرنى بأنه قريب منى ومن جيلى .

ولقد كانت جنازة عبد الناصر من أكبر الجنازات التى شهدتها
التاريخ الإنسانى حيث خرجت الملايين تودعه ، أما جنازة سعد



فلم يمش فيها بعض الوفديين أنفسهم فقد كانت فى موسم الإجازات والكثير من زعماء الحزب من الباشوات والبكوات كانوا يمضون الصيف فى أوروبا .

○ هل شاركت أنت فى جنازة سعد زغلول؟

□ بالطبع من ميدان الأوبرا إلى مدافن الإمام الشافعى ، وكانت النوافذ طوال الطريق مليئة بالمودعين الذين كانوا يبكون ويصرخون .

فى وفاة سعد زغلول كان الحزن على رحيل حبيب غال ، أما رحيل عبد الناصر فكان مقترنا بالضياح ، فعند وفاة سعد كان هناك خلفاؤه ، ولكن عند رحيل عبد الناصر لم تكن نعرف له خليفة .

○ كيف تتذكر يوم رحيل عبد الناصر؟

□ هو يوم لن أنساه أبدا يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، لقد كنت دائما آخذ إجازتى فى سبتمبر ، وفى هذا اليوم عدت من الإسكندرية فى المساء أنا وزوجتى وابنتانا ، ولم يكن هناك بالطبع أى استعداد للعشاء بالمنزل الذى كان مغلقا منذ شهر كامل ، فقالت زوجتى إنها سترسل الشغال ليحضر لنا عشاء جاهزا من أحد المطاعم القريبة فجلسنا أنا والبتان أمام التلفزيون نتسلى إلى أن يأتى الطعام ، فلاحظنا أن التلفزيون لا يقدم إلا القرآن وعندما طال ذلك قلت لزوجتى إن هناك بالتأكيد كارثة وقعت . إن الراجح عندى هو أنهم قد قتلوا الملك حسين ، فقد كان الملوك العرب مجتمعين فى القاهرة بدعوة من الرئيس عبد الناصر فى محاولة لوقف مذبحه أيلول بين الأردن والفلسطينيين ، لكن فى أثناء ذلك عاد الشغال من المطعم ليقول إنه سمع أن الرئيس توفاه الله ففرغت فيه فزعة عارمة ونهرته بشدة وقلت له ألا يفتح فمه بمثل هذا الكلام وأن يمكث بالبيت ولا يبرحه ، فقد خشيت أن يروج مثل هذا الكلام فى الخارج ، لكن بدأ يداخلى الشك والقلق ، ولم أستطع أن أذوق الطعام ، وبعد دقائق أعلن التلفزيون أن أنور السادات نائب عبد الناصر سيلقى بيانا ،

وما إن شاهدت وجه أنور السادات على التلفزيون حتى كنت أنا الذى قلت الرئيس مات ! فلم أر فى حياتى وجهها كوجه أنور السادات فى هذا اليوم الذى كان مكتوباً عليه الموت بخط فارسى .

وأسأل الأستاذ :

○ ماذا كان شعورك بعد أن تيقنت من الخبر ؟

فيقول :

□ كنت فى حالة من الارتباك من جملة عواطف شديدة جداً . فمن ناحية لم أكن مصدقاً تماماً فى داخل نفسى أن عبد الناصر قد مات ، فقد كنت أحد المختلفين مع نظام حكمه ، وكنت من المعارضين الشرفاء فى الكثير من رواياتى ، خاصة ما كتبه بعد نكسة يونيو ٦٧ ، وقد قبل عبد الناصر هذه المعارضة ولم يصادر عليها لا فى كتاب ولا فى فيلم ، وفى الوقت نفسه أنا أول المعترفين بمآثره وما فعله للمجتمعين المصرى والعربى ، لكن فى هذه اللحظة لم يكن أمامى إلا مآثر هذا الزعيم العظيم ، وحدث لى فزع شخصى عميق التأثير لن أنساه ما حييت ، من أننى أنا أيضاً سأموت ، فإذا كان عبد الناصر قد مات فمن ذا الذى سيحيا ؟ ! فالموت كما يقول الشاعر حتم مؤجل ، لكن هذا الحدث لم يجعله مؤجلاً بل جعله مائلاً أمامى ، فهذا هو الزعيم الذى أحدث فى العالم كله هذا التأثير بعيد المدى ، وهذا الرجل الذى دخل كل قلوب أبناء وطنه بطرق مختلفة حتى أصبح جزءاً منها ، حتى لم نكن نتصور الحياة بدون . قد مات وانتهى ، لقد كانت تلك اللحظة أخذت فيها درساً عن قيمة العظمة وقيمة الحزن وقيمة الحياة التى لا تساوى شيئاً مع إحساس شديد بالعدم ، كان يوماً عانيت فيه من المشاعر المتضاربة ما لم أعان فى حياتى .

○ وكيف كان يوم رحيل السادات ؟

□ كنت قد سافرت إلى الإسكندرية أنا وابنتى الصغرى فاتن

(فاطمة) لقضاء إجازة أعياد أكتوبر ، وأثناء جلوسى إلى جانبها بالسيارة كنت أتابع وقائع الاحتفال فى الراديو .

وحين وصلنا الإسكندرية تناولنا الغداء وغننا ، وبعد أن صحوت جلست قليلا فى البلكون فوجدت إحدى الجارات تشير إلى من بلكونتها وكأنها تقول : هل سمعت الراديو ؟ فتصورت أن لى حديثا يذاع فى الراديو فأومأت إليها برأسى مبتسما ودخلت .

ثم نزلنا بعد ذلك أنا وابنتى إلى وسط البلد لنذهب إلى السينما ، وأجلست فاتن فى محل مقابل لسينما مترو حيث طلبت أيس كريم وخطوت الشارع إلى السينما لشراء التذاكر ، لكن ما إن وصلت إلى السينما حتى وجدتها مغلقة ، فلم أفهم كيف تغلق السينما أبوابها فذهبت إلى أحد الباعة الذين يفترون الطريق ، وكان يبيع الفول السودانى واللب وقلت مستنكرا : إن السينما مغلقة ! فقال : طبعا ، قلت له : لماذا ؟ قال : الرئيس قُتل . قلت له غير مصدق : أي رئيس ؟ الرئيس السادات ؟ قال : نعم فعدت الى ابنتى مهرولا ، وعلامات الدهول على وجهى لأقول لابنتى الخبر فقالت لى : لقد أخبرنى الجرسون بذلك منذ لحظات .

وعدنا إلى البيت فى حالة اضطراب وقلق ، وفى الصباح الباكر قلت لابنتى فاتن : عودى بى مرة أخرى للقاهرة لنرى ماذا سيحدث للبلد ، وطوال رحلة العودة وأنا جالس إلى جانب ابنتى كنت أدعو الله ألا يكون من قام بهذا العمل أحد الأقباط ، فقد كانت هناك فى ذلك الوقت اضطرابات طائفية ما بين المسلمين والأقباط غريبة تماما على مجتمعنا ، لكنها كانت تهدد أساس بنيانه ، ولاشك أن الباعث على الاغتيال كان سياسيا لكن الفاعل كان يمكن أن يكون مسلما أو قبطيا .

والحقيقة أننا كنا جميعا قد عتبنا كثيرا على السادات فى أيامه الأخيرة ، حيث كانت انفعالاته قد وصلت الى أبعد مدى ، ولم يعد يتحمل أية خلافات معه فى رأى ووصل به الأمر إلى أن أودع المجتمع السياسى كله تقريبا فى السجن .

لكنى مع ذلك كنت مدركا لمآثره الكثيرة ، ولم أكن أحب أن
ينتهى صاحب حرب أكتوبر المجيد وصاحب التعددية الحزبية مثل
هذه النهاية المفجعة وفى نفس يوم عرسه ، يوم الاحتفال بذكرى
حرب أكتوبر .

○ لاحظ أنك رغم مواجهتك الموت فى أكثر من مرة فى حياتك ، إلا
أنك كنت دائما وكأنك تواجهه لأول مرة ، وكأنك لأول مرة اكتشفت
حقيقة مريرة لم تكن تدركها من قبل .

□ لأنه فى كل مرة كان يأتى بشكل جديد . . . كانت طعنته
تختلف ، لأنها تأتى فى شخص له عندى منزلة مختلفة وعلاقتى به
تختلف ، فبعد أن فقدت صديق الطفولة فقدت والدى ثم فقدت
الزعيم القومى والشعور فى حالة كل منها يختلف تماما ، لكن فى
جميع الأحوال فقد كان الموت يقول لى : إن طعناتى ليس لها نهاية
وفى كل مرة سأسدد لك طعنة جديدة لها مذاق جديد ! لذلك كان
للموت عندى دائما تأثير عميق .





هموم اليوم وحسن الختام



وفى نهاية حديثنا أسأل الأستاذ :

○ ماهو همك الشاغل فى هذه المرحلة من حياتك ؟

فيقول :

□ إن أهم ما يشغل الإنسان حين يصل إلى المحطة الأخيرة من حياته ، هو أن يطمئن على ذويه والشئ الثانى هو حسن الختام .

○ حين نتحدث عن الاطمئنان على ذورك فماذا تقصد ؟

□ أقصد الأهل والأصدقاء والبلد .

○ ماذا تتمنى للأهل والأصدقاء ؟

□ أولاً أتمنى أن تستمر علاقتى بهم كما هى جميلة ، وأن أراهم دائماً كما أتمنى لمن أحبههم الصحة والعافية وعدم الحاجة ، وأن يحقق أفراد أسرتى ذواتهم بالطريقة التى يريدونها كل منهم .

○ . . وللبلد ؟

□ بالنسبة للبلد أتمنى أن تستقر مصر سياسياً فلا تتغير فيها السياسات وتبديل ما بين فترة وأخرى حتى تنقلب من النقيض إلى النقيض ، وأن تتوالى السلطة فنعرف من الذى سيأخذها حين يحين الوقت ، وأن يكون للشعب دور فى ذلك فيحاسب من يأتى بهم إلى الحكم ويصبح هناك فى البلد شبه وحدة وتضامن متمثل فى مشاركة أهل هذه الرقعة من الأرض فى تحمل مسؤوليتها . إن أهم ما أتمناه للبلد هو الاستقرار السياسى .

بعد ذلك أتمنى أن يأتى اليوم الذى يقول فيه الخبراء الاقتصاديون إن مشكلتنا قد حلت وليس هناك خوف من أزمات أو انهيارات اقتصادية .

إن الاستقرار السياسى والاستقرار الاقتصادى سيتبعهما أشياء كثيرة منها تقليل نسبة البطالة وانحسار ظاهرة الإرهاب ، عندئذ تصل البلد إلى مرحلة الصحة النفسية .

هذا لايعنى أن جميع السلبيات ستختفى فهذا خيال ، فقد يكون هناك قدر من الفساد ، وقد يكون هناك قدر من الفقر أو الاضطراب لكن فى ظل الاستقرار السياسى والاستقرار الاقتصادى فسيكون بمقدورنا تحمل نصيبنا من تلك السلبيات دون عناء كبير .

○ وهل تتوقع أن ما بقى فى عمرك وعمرى يكفى للوصول إلى هذا ؟

□ فى عمرك أنت إن شاء الله .

○ وماذا تقصد بحسن الختام ؟

□ أقصد أننى أتمنى أن تكون سهلة ، فالناس يتركون هذه الدنيا على أحوال ، فى بعض الأحيان يتركونها وكأنهم فى نزهة ، فدون أن يدروا يجدوا أنفسهم قد تركوها ، وفى أحيان أخرى يخرجون بتعب شديد .

إن لي شقيقين أحدهما أصيب بالسرطان وكان الأسبوعان الأخيران من حياته غاية فى الصعوبة ، والآخر مات وهو يشرب الشاى مع ابنه حيث نادى عليه ابنه فلم يجب إليه ليجده قد مات ، وذلك كرم كبير من الله ، فالموت حكم لا تملك إزاءه أى شىء وهو آت لا ريب فيه ، إن ما نطلبه ، تخفيف الحكم فقط .

○ وماذا يشغل حياتك اليومية فى الوقت الحالى ؟

□ أهم ما يشغل حياتي اليومية هو العلاج والشفاء لأنى بدونهما أشعر بدرجة كبيرة من العجز .

○ إنك تبدو سليماً معافى وهناك من هم أصغر منك سناً من المقعدين .

□ أنا لا أشكو ولا أتدمر ، لكنك تعلم أن الاعتداء الذى وقع على فى أكتوبر ١٩٩٤ قد أفقدني إمكانية استخدام ذراعي اليمنى

لأن الطعنة جاءت في الجانب الأيمن من عنقي فأثرت على ما يبدو
على عصب الذراع ، والكاتب لابد أن يشعر بالعجز إذا أصيب
ذراعه الأيمن .

ولقد تزامن ذلك مع التدهور الذي أعيشه منذ سنين في البصر
والسمع فزاد إحساسي بالعجز .

ثم تبرز عيناه وهو يضيف :

□ لكنني أخضع للعلاج الطبيعي وقد أصبحت أتحكم بشكل أكبر
الآن في ذراعي .

ثم يتناول كراسي من جانبه ويقول لي :

□ أريد أن أطلعك على شيء .

وأنظر إلى الكرسي فأتعرف عليها ، إنها كرسي التدريب
اليومية التي يدرب يده فيها على الكتابة ، ونظرت إليها فوجدت
أسماء بعض أصدقائه ومن بينها اسمي واسم جمال الغيطاني
وآخرين .

وأنظر إلى عينيه مستفسرا ، فيقول لي :

□ ألا تلاحظ شيئا ؟

وأنظر ثانية فأرى نفس الخط غير السليم الذي كنت أراه كل مرة
أنظر فيها إلى تلك الكرسي فيقول لي ثانية :

□ ألا ترى ؟ إنني لم أعد أنزل عن السطر .

ويكاد الدمع يفر من عيني حبا لهذا الرجل ، وأنا أرى الحماس
يبرق في عيني كاتب مصر الكبير الذي عاد يتعلم الكتابة مرة أخرى
في سن الـ ٨٥ بعد أن كرمه العالم بمنحه أرفع الجوائز التي تعطي
للكتابة ، ويملؤني شعور عظيم بالاحترام والتقدير للرجل لمشاربته
وعدم قبوله للهزيمة .



الفهرس

٧	تقديم
٩	الطفولة والجمالية
١٩	وجه مصر
٢٥	أى الأمصار
٣٣	النيل ملكا
٤١	الشخصية المصرية
٤٧	الإرهاب
٥٣	الله والمعرفة
٦٥	من الثورة إلى الديمقراطية
٧١	إسرائيل والسلام
٧٧	المرأة والجريمة والأدب
٨١	ربطة العنق والبول والطعمية
٨٩	طننعات الموت
٩٩	هموم اليوم وحسن الختام

رقم الايداع: ٩٦/١٣٩٥٢
I.S.B.N. 977 - 09 - 0363 - 9

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)



يضم هذا الكتاب النص العربي لكتاب « وطنى مصر » الذى صدر أخيرا بالفرنسية
فى باريس عن واحدة من كبريات دور النشر العالمية هى دار « لاتيس » .
والكتاب يقدم سلسلة حوارات متصلة ، أجراها الكاتب محمد
سلماوى مع أديب مصر العالمى نجيب محفوظ .
وقد لاقى الكتاب إقبالا كبيرا فى فرنسا عند صدوره ، وأولته
وسائل الإعلام اهتماما خاصا ، وقالت مجلة « لكسبريس » فى حديثها
عنه : إن محفوظ رغم ما أصاب ذراعه اليمنى من عجز بعد
محاولة اغتياله أوقفه مؤقتا عن الكتابة ، إلا
أننا مدينون للكاتب محمد سلماوى الذى جعل صوت محفوظ . بفضل حواراته معه .
يسمع فى العالم كصوت المؤذن ينشر كلمة الحق بين الناس . وقد توج
النجاح الذى حققه كتاب « وطنى مصر » فى فرنسا باختيار نادى
الكتاب الفرنسى له كأفضل كتاب فى شهر ديسمبر ١٩٩٦ .
وذلك هو أكبر تقدير أدبى - بعيدا عن الجوائز المادية - يمكن أن يحصل
عليه كتاب فى فرنسا . والكتاب الذى بين يديك أيها القارئ ليس ترجمة للكتاب
الفرنسى « وطنى مصر » ، بل إنه هو الأصل .
فالحوارات التى دارت بين نجيب محفوظ ومحمد سلماوى كانت بالعربية
وما نقدمه لك هنا هو النص الحرفى لها قبل
أن تترجم للفرنسية .



دار الشروق

القاهرة ٨٠ شارع سيپويه المصرى - رابعة العدوية
ص ب ٣٣ البابوراما - مدينة نصر
هاتف ٢٦٢٣٣٩٨ - ٢٦٢٣٥٤٨
فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)